السؤال والجواب
في النظم القرآني

إعداد الدكتور

حسين الشربيني محمد الشربيني

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الخلائق بقدرته ، ودبر الأمور بمشيئته ، وأتقنها بحكمته ، فأحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، وعلى أصحابه المنتخبين ، وعلى التابعين لسنته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فنعمة البيان بالكلام من أجل نعم الله على الإنسان ، قال تعالى : [ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤] {الرحمن:١-٤} . وتتنوع أساليب الكلام بين الناس ، حصرها الحذاق من العلماء ، فيما أسموه الخبر والإنشاء ، والخبر هو الكلام الذي يصح السكوت عليه ويحتمل التصديق والتكذيب ، والإنشاء على خلافه ، أي الذي لا يحتمل صدقا ولا كذبا ، فليس له نسبة في الخارج تطابقه أو لا تطابقه. وعدوا منه السؤال أو الاستفهام.

ولا يخلو حديث الناس من استعمال السؤال ، ولا يخلو منه حوار ، وما ذاك إلا لأن السؤال وسيلة تخاطب وتفاهم وتبادل للأفكار والمصالح، فللسؤال أهمية كبيرة في طلب العلم والتعلم، والتعارف بين الناس، وقضاء حوائجهم. وليس من المبالغة القول أن حوارات الناس وخطاباتهم لا تتصور بدون السؤال والجواب .

وللسؤال أهمية كبيرة في لغة العرب، وله فيها أدوات يعرف بها ، وجاء القرآن بلسان العرب، فكان للسؤال مكانة بارزة في الأسلوب القرآني، وتنوعت أساليبه، ولو تتبعنا أسئلة القرآن الكريم كلها، نجدها جاءت على نمط بديع ورائع، الأمر الذي جعلها مادة دسمة يحوم

حولها العلماء في القديم والحديث، للوقوف على ما فيها أسرار وبلاغيات . ولا يفوتني أن أنوه إلى أن أسلوب القرآن في السؤال والجواب، جاء على نحو من البلاغة والإعجاز، بحيث لا يغني أسلوب غيره عنه، ولا يؤدي ما أداه، شأنه شأن الأسلوب القرآني عموما ، الذي أعجز الخلق أن يأتوا بمثله .

وفي مجال علوم القرآن الكريم ، والبلاغة العربية ، كان لعلمائنا القدامى عناية بموضوع السؤال، وكان السؤال في القرآن مجالا خصبا لدراساتهم وتأملاتهم، لذا قلما نجد علما منهم خلا مؤلفه من التعرض لموضوع السؤال، موليا عناية كبرى بالاستشهاد بآيات من القرآن الكريم.

ولما كان للسؤال في النظم القرآني هذا القدر الملحوظ كما وقدرا ، أحببت أن أدلف بجهدي المتواضع إلى ساحته ، أتفيأ ظلال جماله ، وأمتع ناظري بما يبدو من تجلياته ، والوقوف على سر النظم في تركيباته ، ولم كان الأسلوب على هذا النحو دون أمثاله ونظرائه . مستعينا بالله عز وجل وتوفيقه ، ثم بأقوال علمائنا عليهم من الله سحائب الرحمة والرضوان ، سائلا الله أن يجعل ما قدموه في ميزان حسناتهم . (١)

وقد سميت ما قمت بجمعه بـ **(السؤال والجواب في النظم القرآني)**، وقسمته إلى مقدمة ، وتمهيد ، وتسعة مباحث ، وخاتمة :

---

(١) تناولت العديد من الدراسات السابقة-لاسيما البلاغية-موضوع "السؤال" مثل:مطابقة الجواب للسؤال في النظم القرآني لـ أ.د/عبدالله محمد سليمان هنداوي بكلية اللغة العربية بالزقازيق، والسؤال والجواب في السور المكية من القرآن الكريم لعبدالله صباح ناصر الملا (ماجستير بكلية الشريعة بالكويت). وفي بحثي هذا أردت وضع تصور عام عن السؤال في القرآن ببيان أهميته لكونه من الوجوه الرئيسة في خطابات القرآن في الدعوة وتقرير حقائق الوحي والرسالة، مع تكرار الأمر به في القرآن، وبيان محظوراته، وكونه كان سببا لنزول العديد من الآيات، إضافة إلى إبراز الناحية البلاغية في السؤال والجواب في القرآن.

المقدمة : وفيها خطة البحث .

التمهيد: التعريف بـ السؤال والجواب والنظم .

المبحث الأول : أهمية السؤال في القرآن.

المبحث الثاني : الأمر بالسؤال.

المبحث الثالث : محظورات السؤال .

المبحث الرابع : السؤال سبب للنزول .

المبحث الخامس : الاستفهام وأدواته .

المبحث السادس : المعاني البلاغية للسؤال.

المبحث السابع : أحوال السؤال والجواب من حيث المطابقة وعدمها .

المبحث الثامن: الحذف في السؤال والجواب.

المبحث التاسع : المشاكلة بين الجواب والسؤال.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث .

هذا وأسأله تبارك وتعالى أن يتجاوز عن زلاتي ، ويقيل عثراتي إنه سميع قريب مجيب الدعاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ.د/حسين الشربيني محمد الشربيني
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

التمهيد

يحسن في البداية التعريف بالألفاظ التي وردت في عنوان البحث، وهي **السؤال والجواب والنظم.**

تعريف السُّؤَالُ :

يعرف السؤال بأنه استدعاء معرفة ، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدّي إلى المال، فاستدعاء المعرفة جوابه على اللّسان، واليد خليفة له بالكتابة، أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد، واللّسان خليفة لها إمّا بوعد، أو بردّ. (١)

وسأله بكذا أو سأله عنه–من باب فتح–سُؤْلا وسؤالاً: استخبره عنه وطلب منه معرفته، وسأل الفقيرُ: طلب من الناس الصدقة. والسائل: الفقير، أو من يسأل عن شيء، قال تعالى: [وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾] {الضحى:١٠} يحتمل السائل الذي يطلب الصدقة، والسائل المستفهم عن شيء. وفعل الأمر من سأل: اسألْ وسَلْ(٢) بحذف همزة الفعل وهمزة الوصل، والسُؤل: الحاجة والطلب، قال تعالى: [قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾] {طه:٣٦}والسؤال: الطلب، قال تعالى: [قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ] {ص:٢٤} أي بطلب نعجتك ليضمها إلى نعاجه. والمسئول: الأمر المطلوب الوفاء به، قال تعالى: [إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا] {الإسراء:٣٤} أي مطلوبا الوفاء به. وتساءل الناس بكذا : أي سأل بعضهم بعضا بحق كذا – أي أقسم بعضهم على بعض ، أو استعطف بعضهم بعضا بحق كذا، ومن ذلك قوله تعالى: [وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ]

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٣٨ مادة : سأل . المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى–١٤١٢ هـ

(٢) أصله اسأل نقلت حركة الهمزة الثانية التي هي عين الكلمة إلى الساكن قبلها ، ثم حذفت تخفيفا ، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها ، فصار وزنه فل.

{النساء: ١}وأصلها تتساءلون به، حذفت إحدى التاءين تخفيفا، أي تتحالفون به وتتحالفون بالأرحام. (١)

وسأل تتعدى لمفعولين ، ويجوز الاقتصار على أحدهما . والسُّؤَالُ إذا كان للتّعريف تعدّى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه، وتارة بالجارّ، تقول: سألته كذا، وسألته عن كذا، وبكذا، وبعن أكثر،[وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ] {الإسراء: ٨٥}،[وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ] {الكهف: ٨٣}، [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ]{الأنفال: ١}، وقال تعالى: [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ] {البقرة: ١٨٦}، وقال: [سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١] {المعارج: ١}، وإذا كان السّؤال لاستدعاء مال فإنه يتعدّى بنفسه أو بمن، نحو: [وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ]{الأحزاب: ٥٣}، [وَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ] {الممتحنة: ١٠}، [وَسْـَٔلُوا ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ] {النساء: ٣٢} . (٢)

والسؤال–بناء على ما سبق– يدور معناه حول الطلب، والطلب إما لمال ونحوه، أو طلب معرفة، وهو الاستخبار الذي يعبر عنه بالاستفهام، فكل استفهام سؤال، وليس العكس ، فبينهما عموم وخصوص .

مادة الكمة في القرآن: وردت مادة سأل في القرآن بتصاريفها المختلفة في مائة وثلاثين موضعا. على نحو ما سبق ذكره التعريف، وما سيأتي ذكره في ثنايا البحث بعون الله وتوفيقه .

تعريف الجواب :

مادة الكلمة "جوب" والجَوْبُ: قطع الجَوْبَة، وهي كالغائط من الأرض، ثم يستعمل في قطع كلّ أرض، قال تعالى:[وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩]{الفجر: ٩}.وجوابُ

---

(١) انظر: القاموس القويم للقرآن الكريم للأستاذ / إبراهيم أحمد عبدالفتاح صـــ ٢٢٨ باب السين ط/ دار الكلمة للنشر والتوزيع بالمنصورة ط/ الأولى ١٤٢٧هـــ ٢٠٠٦م

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٣٨

الكلام: هو ما يقطع الجوْب، فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع، لكن خصّ بما يعود من الكلام دون المبتدأ من الخطاب، قال تعالى:[فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ] {النمل:٥٦}،والجواب يقال في مقابلة السؤال، **والسؤال على ضربين:** طلب مقال، وجوابه المقال. وطلب نوال، وجوابه النوال.فعلى الأول:[أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ]{الأحقاف: ٣١}،**وقال:** [وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ] {الأحقاف:٣٢}.وعلى الثاني قوله:[قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا] {يونس:٨٩} ، أي: أعطيتما ما سألتما.

والاستجابة قيل: هي الإجابة، وحقيقتها هي التحري للجواب والتهيؤ له، لكن عبّر به عن الإجابة لقلة انفكاكها منها، قال تعالى:[ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ]{الأنفال:٢٤}، وقال:[ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ]{غافر:٦٠}،[فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي]{البقرة:١٨٦}،[فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ] {آل عمران:١٩٥}،[وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ] {الشورى:٢٦} [وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ] {الشورى:٣٨} .(١)

مادة الكمة في القرآن:وردت الكلمة بتصاريفها المختلفة في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين موضعا .

تعريف النظم :

النظم في اللغة: جمع اللؤلؤ في السلك. وفي الاصطلاح: تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل وقيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل.(٢) فالمراد بنظم القرآن: الجمل والعبارات التي تتألف منها الآيات والسور .

---

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ ٢١٠

(٢) انظر : التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني ص٣١٠ الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ تحقيق : إبراهيم الإبياري

وقد أبدع إمام البلاغيين وشيخهم: عبد القاهر الجُرجاني (ت: ٤٧١هـ) في حديثه عن النظم ، وقيامه على توخي علم النحو ومراعاة قوانينه وأصوله . قال رحمه الله :

النظم أن تضعَ كلامَك الوضعَ الذي يَقتضيهِ علمُ النّحو وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه وتعرفَ مناهجَهُ التي نُهِجَتْ فلا تزيغُ عنها وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسِمتْ لك فلا تُخلَّ بشيءٍ منها. وذلك أنّا لا نعلمُ شيئاً يبتغيه النّاظمُ بنظمِه غيرَ أنْ ينظرَ في وجوهِ كلّ بابٍ وفُروقه، فينظرُ الناظم في الخبرِ، وفي الشرطِ والجزاء وفي الحالِ.

فيعرفُ لكلٍّ من ذلك موضعَه ويجيءُ به حيثُ ينبغي له، وينظرُ في الحروف التي تشتركُ في معنًى ثم ينفردُ كلُّ واحدٍ منها بخصوصيّةٍ في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاصِّ معناهُ، وينظرُ في الجملِ التي تُسردُ فيعرفُ موضعَ الفصلِ فيها مِن موضعِ الوصل ثم يعرف فيما حقُّه الوصلُ موضعَ الواو من موضعِ الفاء وموضعَ الفاءِ من موضعِ " ثُمَّ " وموضعَ " أو " من موضعِ " أم " وموضعَ " لكنْ " من موضعِ " بل " .

ويتصرفُ في التّعريفِ والتّنكيرِ والتّقديمِ والتّأخير في الكلام كُلّه وفي الحذفِ والتّكرارِ والإضمارِ والإظهار فيضعُ كلاًّ من ذلك مكانَهُ ويستعملهُ على الصّحَّة وعلى ما ينبغي له...

ثم قال رحمه الله : فلا ترى كلاماً قد وُصِف بصحّةِ نظمٍ أو فسادِه أو وُصف بمزيَّةٍ وفضلٍ فيه إلا وأنت تجدُ مرجعَ تلك الصحَّةِ وذلك الفسادِ وتلكَ المزيةِ وذلك الفضلِ إلى معاني النَّحو وأحكامِه ووجدتَهُ يدخُلُ في أصلٍ من أصولهِ ويتّصلُ ببابٍ من أبوابه.(١) ومع تنوع وجوه الإعجاز في القرآن ، واختلاف العلماء فيها، إلا أن القول الذي عليه الجمهور والحذاق ، أن التحدي إنما وقع بنظمه ، وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه.

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ، الجرجاني صـ ٨١- ٨٣ بإيجاز يسير. المحقق: محمود محمد شاكر ، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة ط: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

قال ابن عطية: ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا.

فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: «إن العرب كان من قدرها أن تأتي بمثل القرآن فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه» .

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام.[1]

****

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ١/ ٥٢ ، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ

المبحث الأول

أهمية السؤال في القرآن

الناظر في القرآن الكريم، يجد قدرا كبيرا من الأسئلة التي خرجت على نحو رائع ، تجعل كل من ينظر في هذه الأسئلة بتجرد ودون كبر وهوى، تجعل من هذا شأنه، الإقرار بحقية ما فيه، وحقية من جاء من عنده. وليس بخاف أن الله لا يسأل ليستعلم، فهو سبحانه قد أحاط بكل شيء علما، فالسؤال منه سبحانه ليس على حقيقته، والمراد منه وقوف الإنسان على حقيقة الأمر المسؤول عنه، أو إنكار ما هو عليه من باطل أو توبيخه ونحو ذلك من المعاني. وكأني بالقرآن الكريم يضع الإنسان في امتحان كبير أمام نفسه، ويوقفه موقف الصدق، ليدرك مكانه في هذه الحياة. فلا ينبغي على الإنسان أن تمر عليه ساعات الحياة دون تأمل، ولا يستقيم التأمل بدون سؤال، ولا يستقيم السؤال إلا إذا كان من عليم، ولا أحد أعلم بالإنسان من خالقه، لذا كان السؤال منه سبحانه، من أجلّ ما يُنظر فيه، لأن ثمرته إنما تعود على العبد الضعيف، حيث تستقيم حياته دنيا وأخرى.

القرآن الكريم من خلال مطالبته المتكررة بالإجابة عن أسئلته المتنوعة، يقر بأن السؤال منهج رئيس للمعرفة والوصول للحق، والله سبحانه قد هيأ للإنسان من الملكات المعرفية، ما يمكن من خلالها أن يصل للصواب من خلال الإجابة عن هذه الأسئلة، وإلا لما سأل، لأنه سبحانه لا يكلف إلا بما في مكنة الإنسان.

وقد استخدم القرآن الكريم أسلوب السؤال في إبطال المعتقدات الفاسدة، وبيان خطأ أصحابها، وسفه عقولهم. وهذا ظاهر جلي، سيما في الآيات المكية، والتي عنيت كما هو معلوم بتلك الأمور العقدية التي تتعلق بقضايا الألوهية والرسالة، واليوم الآخر وما يتصل به من بعث وحشر ونشر ... الخ، من أمور لا تؤخذ إلا بالسماع من الصادق صلى الله عليه وسلم. وتأمل علي سبيل المثال هذه الآيات من سورة الطور:

[أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ] {الطور: ٣٠- ٤٣}.(١) وقوله تعالى :[وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ] {الزخرف:١٩}.

وهذه الأسئلة ليس المطلوب الجواب عليها، فلا جواب لها عندهم ، وإنما المراد إيقافهم مع أنفسهم للنظر والتأمل ، وإنكار ما هم عليه من ضلال ، وتوبيخهم على ما هم عليه من سفه ، مع سلامة العقول التي لو أعملوها في النظر في هذه الأسئلة ونظائرها ، لدلتهم على الحق .

---

(١) حَكَى الثَّعْلَبِيُّ عَنِ الْخَلِيلِ أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَا فِي سُورَةِ وَالطُّورِ مِنْ أَمْ فَاسْتِفْهَامٌ وَلَيْسَ بِعَطْفٍ. يعنى ليست بمنقطعة. وفي "برهان القرآن" أعاد أم خمس عشرة مرة وكلها الزامات، وليس للمخاطبين بها عنها جواب. وفي "عين المعاني": أم هاهنا خمسة عشر، وكله استفهام، أربعة للتحقيق على التوبيخ بمعنى بل، {أم يقولون شاعر} {أم يقولون تقوله} وقد قالوها، و{أم هم قوم طاغون} و{أم يريدون كيدا} وقد فعلوها ، وسائرها للإنكار. وفي "فتح الرحمن" جميع ما في هذه السورة من ذكر أم استفهام غير عاطفة ، واستفهم تعالى مع علمه بهم تقبيحا عليهم وتوبيخا لهم. انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٥٧٤/٩ المحقق: صدقي محمد جميل ، الناشر: دار الفكر - بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠ هـ وروح البيان لإسماعيل حقي ٩/ ٢٠٠ الناشر: دار الفكر - بيروت.

وقد استخدم القرآن أسلوب السؤال كمنهج عقلي في الاستدلال على قدرة الله ، وأنه وحده صاحب التصرف والتدبير في الكون . قال تعالى : [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾] {العنكبوت:٦١} [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾] {الزمر:٣٨} [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾] {الزخرف:٨٧} [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾] {العنكبوت:٦٣} .

في هذه الآيات الكريمة تعليم للنبي عليه الصلاة والسلام أن يسأل قومه عمن خلق السموات والأرض، وغيرهما من الأمور التي لا تصدر إلا عن خالق عظيم قدير عليم ، وفي السؤال تنبيه على عظمة خلق السموات والأرض، فالسؤال عن الشيء العظيم ، يدل على عظمة خالقه ، ويوجب عقليًا الإقرار بقدرة الخالق سبحانه وتعالى.

كما كان السؤال أيضا أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله ، واختبار غير المسلمين لا سيما أهل الكتاب ، بهدف إثبات صدق النبوة وصدق القرآن، لأن في ذكر القرآن الكريم لما في تاريخ أهل الكتاب دليل عل نبوته، وبأن كل ما يعلمه محمد عليه الصلاة والسلام عن أهل الكتاب مصدره الوحي من الله تعالى، قال تعالى : [سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾] {البقرة:٢١١} [يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا

جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾] {النساء:١٥٣}

[وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾] {الأعراف:١٦٣} .

ولا يخفى ما في هذه الآيات من التحدي الصارخ لأهل الكتاب، وأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، هو عين الحق الذي جاء أنبياء الله السابقين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وتبرز أهمية السؤال أيضا في أنه كان مدخلا للتشريع ، أعنى تلك الأمور التي تتعلق بالعبادات والمعاملات والحدود والأسرة وغيرها من الأمور التي عنيت بها كتب الفروع ، وهذا هو الغالب في السؤال المدني ، أو القرآن المدني كما هو معلوم . ولا يخفى أن السؤال عن هذه الأمور التشريعية يكون من الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبدو هذا واضحا في تلك الآيات المفتتحة بـــ [يَسْـَٔلُونَكَ]. فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

[يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾] {البقرة:٢١٥} [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾] {البقرة: ٢١٩، ٢٢٠}

[وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ

فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢] يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ [الأنفال: ١]

وهكذا كان السؤال مدخلا هاما للأمور التشريعية في القرآن الكريم ، حيث كانت تنزل الآيات جوابا لما كان يعن للمسلمين من أمور ، فكان السؤال سببا لنزول العديد من الآيات ، على نحو ما سيأتي تفصيله في المبحث الرابع .

وقد استخدم القرآن أسلوب السؤال والجواب، في التشويق للمعرفة، وإثارة انتباه السامعين لما يتلى عليهم ، ويبرز هذا في تلك الآيات المفتتحة بـ{ما أدراك}.

قال تعالى : الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ [الحاقة: ١-٤] وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ [المدثر: ٢٧- ٢٩] وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ [المرسلات: ١٤] وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ [الانفطار: ١٧-١٩] وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ [المطففين: ٨،٩] وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ [المطففين: ١٩،٢٠] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ [الطارق: ٢،٣] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ [البلد: ١٢- ١٤] وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ [القدر: ٢، ٣] الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ [القارعة: ١-٤] وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ

حَامِيَةٌ ﴿١١﴾] {القارعة: ١٠، ١١} [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾] {الهمزة: ٥، ٦} .

وهذه الطريقة ،أعني السؤال والجواب، من أساليب التفسير القرآني للقرآن ،كما هو معلوم.

قال الراغب: وكلّ موضع ذكر في القرآن وَما أَدْراكَ، فقد عقّب ببيانه، نحو [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾] {القارعة: ١٠، ١١}، [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ] {القدر: ٢، ٣}، [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ] [الحاقة: ٣]، ... وكلّ موضع ذكر فيه: { وَما يُدْرِيكَ } لم يعقّبه بذلك، نحو: [وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾] {عبس: ٣}، [وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾] {الشورى: ١٧}. (١)

والمراد بـ {ما أَدْراكَ} أي: أي شيء أعلمك بما ذكر، من الحاقة وسقر وسجين وعليين... الخ، وفيه تأكيد لهول المذكور وفظاعته، أو عظمته وعلو قدره، ببيان خروجه عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنه، لا يكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قدرت حاله فهي وراء ذلك وأعظم، فلا يتسنى الإعلام، ومنه يعلم أن الاستفهام كني به عن لازمه من أنه لا يعلم ولا يصل إليه دراية دار ، ولا تبلغه الأوهام والأفكار. (٢)

وجاء الجواب لـ {ما أَدْراكَ} فيما سبق ببيان نفس المسؤول عنه، أو بيان حال من أحواله.

---

(١) المفردات للراغب صـ ٣١٣ مادة درى.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي بتصرف ١٥/ ٤٦ ، المحقق: علي عبد الباري عطية ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ ه.

يقول أبو السعود رحمه الله : [كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾] {الحاقة: ٤} والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لإعلامِ بعضِ أحوالِ الحَاقَّةِ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إثرَ تقريرِ أنَّه ما أدراهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بها أحدٌ ، كما في قولِهِ تعالى: [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾] {القارعة: ١٠، ١١}ونظائرُهُ ، خَلا أنَّ المبيِّنَ هناكَ نفسُ المسؤول عنْهَا ، وهَهُنَا حالٌ منْ أحوالِهَا ، كَما في قولِهِ تعالى : [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾] {القدر: ٢، ٣}، فكمَا أنَّ المبيَّنَ هناكَ ليسَ نفسَ ليلةِ القدرِ ، بل فضلَها وشرفَها ، كذلكَ المبيَّنُ ههنا هولُ الحاقةِ وعظمُ شأنِهَا، وكونُها بحيثُ يحقُّ إهلاكُ منْ يكذبُ بها ، كأنَّه قيلَ: وما أدراكَ ما الحاقةُ ، كذبتْ بها ثمودُ وعادٌ فأُهلِكُوا. (١)

ويضاف إلى أهمية السؤال ، تلك الأغراض البلاغية ، التي خرج إليها الاستفهام عن معناه الأصلي ، والتي أفردت لها مبحثا مستقلا .

****

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ٢٢ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

المبحث الثاني

الأمر بالسؤال

أمر الله عز وجل رسوله الكريم بالسؤال، والسؤال موجه لمن سبقه من أهل الكتاب غالبا، وذلك لتقرير قضايا الوحي والرسالة، والسؤال وإن كان موجها لرسول الله- صلى الله عليه وسلم، لكون القرآن مترل عليه، ولكونه المخاطب الأول به، إلا أن فيه تعريضا بغيره، ممن هم في شك من أمره، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم- ليس في شك من الأمر، وإنما كان ذلك كذلك قطعا لدابر المرجفين، وتأكيدا على صلابة موقف الرسول الكريم، وأنه ليس بدعا من المرسلين، ونسفا لكل ما من شأنه في أمر الوحي أو الرسالة يشين.

قال تعالى: [سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ] {البقرة:٢١١}

الأمر بالسؤال في الآية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم- ، أو لكل من يتأتى منه السؤال ، والمسئول بنو إسرائيل وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى . والسؤال في الآية ليس للاستعلام، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم عالم بجميع الآيات التي أوتوها، فحينئذ لا يحتاج إلى جواب؛ لأن السؤال إذا كان لغير الاستعلام. لا يحتاج إلى الجواب.(١) والاستفهام في الآية للتقرير، وضابطه هو حمل المخاطب على الإقرار بأمر علم عنده ثبوته، ولا ينافي التبكيت؛ لأن معنى التقرير:

---

(١) انظر: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان الجمل ٢٧٢/١ ط/ دار الفكر.

الحمل على الإقرار، وهو لا ينافي التقريع والتبكيت. وفي هـذا زجـر لهـم عمـا هـم عليه من عدم الإيمان وإقامة الحجة عليهم . (١)

ويجوز في "كم " أن تكون خبرية ، دلالة على كثرة الآيات التي أتت بني إسرائيل . والمراد بالآية البيّنَة أي العلامة الظاهرة وهي المعجزات الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الحسن ومجاهد ، وتخصيص إيتاء المعجزات بأهل الكتاب مع عمومه للكل لأنهم أعلم من غيرهم بالمعجزات وكيفية دلالتها على الصدق لعلمهم بمعجزات الأنبياء السابقة . وقد يراد بالآية معناها المتعارف وهو طائفة من القرآن وغيره ، و (بينة) من بان المتعدي ، فالسؤال على إيتاء الآيات المتضمنة لنعت الرسول صلى الله عليه وسلم وتحقيق نبوته والتصديق بما جاء به . (٢)

وفي سورة الأعراف أمر الله عز وجل رسوله بسؤال أهل الكتاب عن قصة أصحاب السبت ، وهم أهل تلك القرية الساحلية، التي أهلك الله العاتين فيها ، هذه القصة التي لا سبيل لمحمد صلى الله عليه وسلم لمعرفتها إلا من لدن الوحي ، وفي هذا دليل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى: [وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ] {الأعراف:١٦٣} .

---

(١) انظر: المرجع السابق١/٢٧٢وتفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الهرري الشافعي٣/٢٥٤ إشراف ومراجعة: الدكتور/هاشم محمد علي بن حسين مهدي الناشر: دار طوق النجاة، بيروت- لبنان الطبعة:الأولى،١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ١/ ٤٩٤

والمراد بالسؤال عن القرية السؤال عما وقع لأهلها ، والسؤال للتوبيخ والتقريع ، أي واسأل اليهودَ المعاصرين لك سؤالَ تقريعٍ وتقرير كفرَهم وتجاوزَهم لحدود الله تعالى وإعلاماً لهم بأن ذلك مع كونه من علومهم الخفيةِ التي لا يقف عليها إلا من مارس كتبَهم ، قد أحاط به النبيُّ عليه الصلاة والسلام خُبْراً ، وإذ ليس ذلك بالتلقي من كتبهم لأنه عليه الصلاة والسلام بمعزل من ذلك تعين أنه من جهة الوحي الصريح. (١)

وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ هَذَا السُّؤَالِ أَحَدُ أمرين: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا السُّؤَالِ تَقْرِيرُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَقْدَمُوا عَلَى هَذَا الذَّنْبِ الْقَبِيحِ وَالْمَعْصِيَةِ الْفَاحِشَةِ تَنْبِيهًا لَهُمْ عَلَى أَنَّ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمُعْجِزَاتِهِ لَيْسَ شَيْئًا حَدَثَ فِي هَذَا الزَّمَانِ، بَلْ هَذَا الْكُفْرُ وَالْإِصْرَارُ كَانَ حَاصِلًا فِي أَسْلَافِهِمْ مِنَ الزَّمَانِ الْقَدِيمِ.

والثاني: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَقُولُ لِغَيْرِهِ هَلْ هَذَا الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا؟ لِيَعْرِفَ بِذَلِكَ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ، وَغَيْرُ ذَاهِلٍ عَنْ دَقَائِقِهَا، وَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا أُمِّيًّا لَمْ يَتَعَلَّمْ عِلْمًا، وَلَمْ يُطَالِعْ كِتَابًا، ثُمَّ أَنَّهُ يَذْكُرُ هَذِهِ الْقَصَصَ عَلَى وَجْهِهَا مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ وَلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، كَانَ ذَلِكَ جَارِيًا مَجْرَى الْمُعْجِزِ. (٢)

وفي سورة يونس أمر الله حبيبه – صلى الله عليه وسلم – بسؤال السابقين من أهل الكتاب ، تأكيدا على صدق الرسالة والوحي ، قال تعالى: [فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾] {يونس:٩٤} .

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٣/ ٢٨٤

(٢) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي١٥/ ٣٩٠ دار إحياء التراث العربي–بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٢٠هـ

الشَّكُّ: اعتدال النّقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النّقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشيء هل هو موجود أو غير موجود؟ وربّما كان في جنسه، من أيّ جنس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغرض الذي لأجله أوجد. والشَّكُّ: ضرب من الجهل، وهو أخصّ منه، لأنّ الجهل قد يكون عدم العلم بالنّقيضين رأسا، فكلّ شَكٍّ جهل، وليس كلّ جهل شكّا. (١)

والمراد بـ [ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ]أحبار اليهود والنصارى ، حيث يدل على ذلك التعبير بـ [ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ] إيماءً إلى أن المسؤول ليس عوامهم ، وإنما علماؤهم الذين هم على علم بصدق نبوته – صلى الله عليه وسلم – بما قرأوه حقا في كتبهم .

والخطاب في الآية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، علي سبيل الفرض ، أي : إن فرض أنك وقعت في شك ، فوقوعك فيه فرضي من قبيل فرض المحال ، وقيل :الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد غيره . (٢)

وأري – والله أعلم – أنه لا داعي لهذا التكلف في توجيه الخطاب لغيره صلى الله عليه وسلم ، تنزيها له من أن يكون أهلا للشك ، لأن الأصل في جملة الشرط بـ"إن" هو عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط كقوله تعالى : [إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ] {المائدة:١١٦}

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ ٤٦١

(٢) انظر : النفحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان الجمل ٣/ ٤١١

، وعيسى جازم بعدم وقوع قوله.[١] فجمله الشرط هنا لا تثبت له صلى الله عليه وسلم شكا حتى ننفيه ، لذا أرى أن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكل من يصلح أن يكون أهلا للخطاب ، وهذا فيه من المبالغة ما فيه ، مع ما فيه من التعريض بغيره ممن هم في شك من أمره ، من باب إياك أعني واسمعي يا جاره، وإذا توجه الخطاب بهذه الصورة إلى من ليس محلا للشك أصلا ، ففيه إثارة لغيره ممن هو في شك من الأمر إلى أن يسأل إلى أن يصل إلى الحق الذي لا مرية فيه . لذا جاء قوله تعالى بعدها [لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ] {يونس:٩٤} قاطعا صريحا مؤكّدا ومؤكدًا على أن ما جاءه صلى الله عليه وسلم هو الحق المطلق ، الذي يستحق أن يسمى حقا دون غيره، وهذا ما يفيده التعريف في الحق .

وفي هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ، ويذهب به بجملته ، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه هو الحق الذي لا يخالطه باطل ، ولا تشوبه شبهة ، ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فيما أنزل الله عليه ، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك . ويمكن أن يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره ، كما في مواطن من الكتاب العزيز ، وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكذيب بآيات الله ،[في قوله بعدها : [وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾] {يونس:٩٥}]، فإن الظاهر فيه التعريض، ولا سيما بعد تعقيبه بقوله : [فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾] وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ٢١٥ المحقق: محمد أبو الفضل إبـراهيم الطبعـة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي.

الشَّكُّ: اعتدال النّقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النّقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشيء هل هو موجود أو غير موجود؟ وربّما كان في جنسه، من أيّ جنس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغرض الذي لأجله أوجد. والشَّكُّ: ضرب من الجهل، وهو أخصّ منه، لأنّ الجهل قد يكون عدم العلم بالنّقيضين رأسا، فكلّ شَكٍّ جهل، وليس كلّ جهل شكّا. (١)

والمراد بـ [ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ]أحبار اليهود والنصارى ، حيث يدل على ذلك التعبير بـ [ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ] إيماءً إلى أن المسؤول ليس عوامهم ، وإنما علماؤهم الذين هم على علم بصدق نبوته – صلى الله عليه وسلم – بما قرأوه حقا في كتبهم .

والخطاب في الآية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، علي سبيل الفرض ، أي : إن فرض أنك وقعت في شك ، فوقوعك فيه فرضي من قبيل فرض المحال ، وقيل :الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد غيره . (٢)

وأري – والله أعلم – أنه لا داعى لهذا التكلف في توجيه الخطاب لغيره صلى الله عليه وسلم ، تنزيها له من أن يكون أهلا للشك ، لأن الأصل في جملة الشرط بـ"إن" هو عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط كقوله تعالى : [إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ] {المائدة:١١٦}

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ ٤٦١

(٢) انظر : النفحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان الجمل ٣/ ٤١١

، وعيسى جازم بعدم وقوع قوله.[١] فجمله الشرط هنا لا تثبت له صلى الله عليه وسلم شكا حتى ننفيه ، لذا أرى أن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكل من يصلح أن يكون أهلا للخطاب ، وهذا فيه من المبالغة ما فيه ، مع ما فيه من التعريض بغيره ممن هم في شك من أمره ، من باب إياك أعني واسمعي يا جاره، وإذا توجه الخطاب بهذه الصورة إلى من ليس محلا للشك أصلا ، ففيه إثارة لغيره ممن هو في شك من الأمر إلى أن يسأل إلى أن يصل إلى الحق الذي لا مرية فيه . لذا جاء قوله تعالى بعدها [لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ] {يونس:٩٤} قاطعا صريحا مؤكّدا ومؤكدًا على أن ما جاءه صلى الله عليه وسلم هو الحق المطلق ، الذي يستحق أن يسمى حقا دون غيره، وهذا ما يفيده التعريف في الحق .

وفي هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ، ويذهب به بجملته ، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه هو الحق الذي لا يخالطه باطل ، ولا تشوبه شبهة ، ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فيما أنزل الله عليه ، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك . ويمكن أن يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره ، كما في مواطن من الكتاب العزيز ، وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكذيب بآيات الله ،[في قوله بعدها : [وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾] {يونس:٩٥}]، فإن الظاهر فيه التعريض، ولا سيما بعد تعقيبه بقوله : [فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾] وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ٢١٥ المحقق: محمد أبو الفضل إبـراهيم الطبعـة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي.

النهي لهم أنفسهم؛ لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصوّر صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن منه ذلك . (١)

وكما أمر الله الرسول – صلى الله عليه وسلم – بسؤال أهل الكتاب ، أمره أيضا بسؤال المشركين وتحديهم فيما هم عليه من باطل ، قال تعالى: [أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾] {القلم: ٣٥– ٤٠} .

أمر– سبحانه– رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يسأل المشركين سؤال تبكيت وتأنيب فقال: [سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾] والزعيم: هو الضامن، والمتكلم عن القوم، والناطق بلسانهم.. واسم الإشارة يعود على الحكم الباطل الذي حكموه، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين.

أي: سل– أيها الرسول الكريم– هؤلاء المشركين، سؤال تقريع وتوبيخ، أي واحد منهم سيكون يوم القيامة، كفيلا بتحمل مسئولية هذا الحكم، وضامنا بأن المسلمين سيكونون متساوين مع المجرمين في الأحكام عند الله– تعالى–.(٢)

ولما أثار المشركون شبهة أن يبعث الله بشرا رسولا، أمر الله هؤلاء المنكرين للرسالة أن يسألوا أهل العلم من الأمم السابقة ، حيث كان المرسلون فيهم بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ولما كان مشركو العرب مقرين لليهود والنصارى بالعلوم

---

(١) فتح القدير للشوكاني اليمني ٢/ ٥٣٨ بتصرف يسير جدا . الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ

(٢) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم د/ محمد سيد طنطاوي (رحمه الله) ١٥/ ٥٤ الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ، الطبعة: الأولى.

والمعرفة بالكتب السابقة كالتوراة والإنجيل ، أمروا بسؤالهم . قال تعالى : [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾] {النحل:٤٣} ، وقال تعالى : [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾] {الأنبياء:٧}

قَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ، أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ، وَقَالُوا: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ : [أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ] {يونس:٢} ، وَقَالَ [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ] {النحل:٤٣} يَعْنِي: أهل الكتب الماضية: أبشر كَانَتِ الرُّسُلُ الَّتِي أَتَتْكُمْ أَمْ مَلَائِكَةً؟ فَإِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً أَنْكَرْتُمْ، وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا؟ [وَ] قَالَ تَعَالَى: [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ] {يوسف:١٠٩} لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا قُلْتُمْ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الذِّكْرِ: أَهْلُ الْكِتَابِ. وَقَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالْأَعْمَشُ. (١)

ولا ينبغي أن يفهم أن الآية تفتح الباب واسعا، لسؤال أهل الكتاب عما يعن من أمور، باعتبارهم أهل الذكر كما وصفتهم الآية، وليس هذا بصحيح، فالآية لقوم مخصوصين، وهم المشركون المنكرون لأمر النبوة ، للسؤال عن أمر خاص، وهو إنكارهم كون الرسول بشرا ، فأهل الكتاب أهل الذكر أي أهل العلم بهذا الأمر الذي هو محل إنكارهم ، فأمروا بسؤال أهل الكتاب فيه ،لأنهم إلى تصديق أهل الكتاب أقرب من تصديق

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٧٣ المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

النهي لهم أنفسهم؛ لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصوّر صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن منه ذلك . (١)

وكما أمر الله الرسول – صلى الله عليه وسلم – بسؤال أهل الكتاب ، أمره أيضا بسؤال المشركين وتحديهم فيما هم عليه من باطل ، قال تعالى: [أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾] {القلم:٣٥- ٤٠} .

أمر- سبحانه- رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يسأل المشركين سؤال تبكيت وتأنيب فقال: [سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾] والزعيم: هو الضامن، والمتكلم عن القوم، والناطق بلسانهم.. واسم الإشارة يعود على الحكم الباطل الذي حكموه، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين.

أي: سل- أيها الرسول الكريم- هؤلاء المشركين، سؤال تقريع وتوبيخ، أي واحد منهم سيكون يوم القيامة، كفيلا بتحمل مسئولية هذا الحكم، وضامنا بأن المسلمين سيكونون متساوين مع المجرمين في الأحكام عند الله- تعالى-.(٢)

ولما أثار المشركون شبهة أن يبعث الله بشرا رسولا، أمر الله هؤلاء المنكرين للرسالة أن يسألوا أهل العلم عن الأمم السابقة ، حيث كان المرسلون فيهم بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ولما كان مشركو العرب مقرين لليهود والنصارى بالعلوم

(١) فتح القدير للشوكاني اليمني ٢ / ٥٣٨ بتصرف يسير جدا . الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ

(٢) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم د/ محمد سيد طنطاوي (رحمه الله) ١٥/ ٥٤ الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ، الطبعة: الأولى.

والمعرفة بالكتب السابقة كالتوراة والإنجيل ، أمروا بسؤالهم . قال تعالى : [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾] {النحل:٤٣} ، وقال تعالى : [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾] {الأنبياء:٧}

قَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ، أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ، وَقَالُوا: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ : [أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ] {يونس:٢} ، وَقَالَ [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ] {النحل:٤٣} يَعْنِي: أهل الكتب الماضية: أبشر كَانَتِ الرُّسُلُ الَّتِي أَتَتْكُمْ أَمْ مَلَائِكَةً؟ فَإِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً أَنْكَرْتُمْ، وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا؟ [وَ] قَالَ تَعَالَى: [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ] {يوسف:١٠٩} لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا قُلْتُمْ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الذِّكْرِ: أَهْلُ الْكِتَابِ. وَقَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالْأَعْمَشُ. (١)

ولا ينبغي أن يفهم أن الآية تفتح الباب واسعا، لسؤال أهل الكتاب عما يعن من أمور، باعتبارهم أهل الذكر كما وصفتهم الآية، وليس هذا بصحيح، فالآية لقوم مخصوصين، وهم المشركون المنكرون لأمر النبوة ، للسؤال عن أمر خاص، وهو إنكارهم كون الرسول بشرا ، فأهل الكتاب أهل الذكر أي أهل العلم بهذا الأمر الذي هو محل إنكارهم ، فأمروا بسؤال أهل الكتاب فيه ،لأنهم إلى تصديق أهل الكتاب أقرب من تصديق

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٧٣ المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه ، فضلا عن أن الفريقين كانا يتشايعان في العـداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله: [إِنكُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾] أي : إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر فاسألوهم .

ولا يخفى ما في قوله تعالى : [فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ] من الدعوة إلى سؤال أهل الاختصاص في الأمر المسئول عنه ، حيث انصرف السؤال إلى العلماء منهم "أهل الذكر"، وليس إلى عوامهم، وهذا الأمر، أعني الأمر بسؤال أهل الاختصاص والخبرة، جاء في آية أخرى، وهي قوله تعالى: [ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾] {الفرقان:٥٩} .

قوله : [فَسْـَٔلْ بِهِۦ]: متعلق بما بعده، والباء على معناه، والضمير في [بِهِۦ] يعود إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش؛ أي: فاسأل يا محمد خبيرًا بما ذكر من الخلق والاستواء. والمراد بالخبير الله سبحانه؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو، كما قال:[وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾] {فاطر:١٤} . وقيل: الباء بمعنى عن، متعلقة بالسؤال. والضمير أيضًا يعود إلى ما ذكر من الخلق والاستواء. أي: فاسأل يا محمد عما ذكر من الخلق والاستواء خبيرًا يخبرك بحقيقته، وهو الله تعالى، أو جبريل، أو من وجده في الكتب المتقدمة؛ ليصدقك فيه. وقيل: الضمير في[بِهِۦ] للرحمن، والباء بمعنى عن؛ أي: إن أنكر هؤلاء المشركون إطلاق الرحمن على الله فاسأل عنه؛ أي: عن إطلاقه على الله خبيرًا من أهل الكتاب يخبرك؛ ليعرفوا؛ أي المشركون، مجيء ما يرادفه في كتبهم؛ أي: أهل الكتاب، وعلى هذا يجوز أن يكون [ٱلرَّحْمَٰنُ] مبتدأ، والخبر ما بعده، والسؤال كما يعدى بعن لتضمنه معنى التفتيش يعدى بالباء؛ لتضمنه معنى الاعتناء.

وفي الصاوي: [بِهِۦ]:متعلق بـ [خَبِيرًا]، قدم لرعاية الفاصلة، والمعنى: اسأل يا محمد خبيرًا بصفاته تعالى، وليس خبيرًا بصفاته إلا هو سبحانه وتعالى. ويصح أن يكون الجار والمجرور متعلقًا بـ {اسأل}، والباء بمعنى عن، والمعنى: اسأل عنه خبيرًا؛ أي: عالمًا بصفاته يطلعك على ما خفي عليك، والخبير حينئذ يختلف باختلاف السائل، فإن كان السائل النبي – صلى الله عليه وسلم – فالخبير هو الله تعالى، وإن كان السائل أصحابه فالخبير هو النبي – صلى الله عليه وسلم –، وإن كان السائل التابعين فالخبير هو الصحابة، وإن كان السائل العوام فالخبير هو العلماء، والمعنى: فاسأل يا محمد، أو فاسأل أيها الإنسان. (١)

ولما كان تعنت المشركين لا حد له طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مبالغة في التعسف مجموعة من العلامات أو المعجزات كشرط للإيمان [وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا] {الإسراء: ٩٠– ٩٣} .

لذا وفي نفس السورة ، وفي معرض إلزام الحجة على بني إسرائيل ، والرد على المشركين الطالبين لنزول الآيات كشرط للإيمان ، قال تعالى: [وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾] {الإسراء: ١٠١} .

(١) انظر : تفسير حدائق الروح والريحان ، للشيخ محمد الأمين بن عبد الله الشافعي ٢٠/ ٩٨، ٩٩

والمراد بالتسع آيات هي الدلائل القاطعة والمعجزات التي تدل على صدقه عليه السلام في إرساله إلى فرعون وملائه. والآيات التسع هي: الْعَصَا، وَالْيَدُ، وَالسِّنِينَ، وَالْبَحْرُ، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هِيَ الْيَدُ، وَالْعَصَا، وَالْخَمْسُ فِي الْأَعْرَافِ، والطَّمْسَة وَالْحَجَرُ. وَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ، وَقَتَادَةُ: هِيَ يَدُهُ، وَعَصَاهُ، وَالسِّنِينَ، وَنَقْصُ الثَّمَرَاتِ، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ. وَهَذَا الْقَوْلُ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ حَسَنٌ قَوِيٌّ. وَجَعَلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ "السِّنِينَ وَنَقْصَ الثَّمَرَاتِ" وَاحِدَةً، وَعِنْدَهُ أَنَّ التَّاسِعَةَ هِيَ: تَلَقُّفُ الْعَصَا مَا يَأْفِكُونَ. (١)

والمسؤول هم بنو إسرائيل المعاصرون لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصح سؤالهم، وإن لم يعاينوا الآيات، لكونها نزلت في أجدادهم ، فكانت بمثابة النازلة فيهم .

وَلَيْسَ الْمَطْلُوبُ مِنْ سُؤَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْتَفِيدَ هَذَا الْعِلْمَ مِنْهُمْ، بَلِ الْمَقْصُودُ أَنَّ يَظْهَرَ لِعَامَّةِ الْيَهُودِ وَعُلَمَائِهِمْ صِدْقُ مَا ذَكَرَهُ الرَّسُولُ فَيَكُونُ هَذَا السُّؤَالُ سُؤَالَ اسْتِشْهَادٍ.(٢)

قال الجلال المحلي: سؤال تقرير للمشركين على صدقك.(٣) أي يترتب على جوابه إقرار المشركين بصدقك. ولا تعارض حيث لا مانع من أن يكون السؤال للاستشهاد وللتقرير ، استشهاد بما سبق من أحوال أهل الكتاب عند نزول الآيات ، وتقرير للمشركين بصدق الرسول لإخباره بما لا سبيل له لمعرفته من أحوال السابقين.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٢٤

(٢) انظر : التفسير الكبير للرازي ٢١/ ٤١٤

(٣) تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص٣٧٧ دار الحديث– القاهرة ط: الأولى.

والمعنى : سل يا محمد بني إسرائيل حين جاءهم موسى بالآيات البينات [١] ، أَيْ وَمَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمُشَاهَدَتِهِمْ لَهَا، كَفَرُوا بِهَا وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا، وَمَا نَجَعَتْ فِيهِمْ: فَكَذَلِكَ لَوْ أَجَبْنَا هؤلاء الذين سألوا منك ما سَأَلُوا، وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا من الأرض ينبوعا إِلَى آخِرِهَا، لَمَا اسْتَجَابُوا وَلَا آمَنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى وَقَدْ شَاهَدَ مِنْهُ مَا شَاهَدَ مِنْ هَذِهِ الآيات [إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾].[٢] والمسحور: الَّذِي سُحِرَ فَخُولِطَ عَقْلُهُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْفَرَّاءُ: هُوَ بِمَعْنَى السَّاحِرِ، فَوُضِعَ الْمَفْعُولُ مَوْضِعَ الْفَاعِلِ.[٣]

وفي سياق التأكيد على وحدة الرسالات في الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بسؤال من سبقه من الرسل، قال تعالى: [وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾] {الزخرف:٤٥}

والسبب الأقوى في إنكار الكفار لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولبغضهم له، أنه كان ينكر عبادة الأصنام، فبيّن تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد صلى الله عليه وسلم، بل كل الأنبياء والرسل كانوا مطبقين على إنكاره فقال: [وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾] {الزخرف:٤٥}.[٤]

---

(١) ذكر المفسرون قولا آخر مبناه على أن الكلام لموسى عليه السلام ،أي فقلنا له: سل بني إسرائيل من فرعون أي اطلبهم فيكون كقوله تعالى: { أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء:١٧] انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي٢/٤٧٦ط/دار النفائس، بيروت، ط/الأولى١٤١٦/١٩٩٦ م

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١١٤

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣١٢

(٤) انظر : التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٦٣٥

وسؤال الرسل في الآية، إما أن يكون حقيقة أو مجازا عن أممهم وعلماء دينهم، ففيه مجاز بحذف المضاف إليه، أي واسأل أمم المرسلين، قولان للعلماء .

قَالَ الزُّهْرِيُّ، وسعيد ابن جُبَيْر، وَابْنُ زَيْدٍ: إِنَّ جِبْرِيلَ قَالَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ. فَالْمُرَادُ سُؤَالُ الْأَنْبِيَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عِنْدَ مُلَاقَاتِهِ لَهُمْ، وَبِهِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ، وَالزَّجَّاجُ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْمَعْنَى وَاسْأَلْ أُمَمَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَعَطَاءٌ، وَالْحَسَنُ.(١) وبه قال أكثر المفسرين. ويؤيد هذا قول مجاهد: في قراءة عبد الله بن مسعود: "واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا". وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة.(٢) وعليه يكون هذا نظير قوله تعالى [فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ] [يونس: ٩٤].

وفائدةُ هَذا المجازِ التنبيهُ على أنَّ المسؤولَ عنه عينُ ما نطقتْ به ألسنةُ الرسلِ لا ما يقولُه أممهم وعلماؤُهم من تلقاءِ أنفسِهم. قالَ الفرَّاءُ: هُم إنما يخبرونَهُ عن كتبِ الرسلِ فإذا سألَهم فكأنَّه سأَل الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.(٣)

قال الرازي: ذِكْرَ السُّؤَالِ فِي مَوْضِعٍ لَا يُمْكِنُ السُّؤَالُ فِيهِ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْهُ النَّظَرَ وَالِاسْتِدْلَالَ، كَقَوْلِ مَنْ قَالَ: سَلِ الْأَرْضَ مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكِ، وَغَرَسَ أَشْجَارَكِ، وَجَنَى ثِمَارَكِ، فَإِنَّهَا إِنْ لَمْ تُجِبْكَ جَوَابًا أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا، فَهَهُنَا سُؤَالُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/ ٦٣٨.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٢٣٠

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ٨ / ٤٨

الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ مُمْتَنِعٌ، فَكَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ انْظُرْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِعَقْلِكَ وَتَدَبَّرْ فِيهَا بِفَهْمِكَ.(١)

وعلى القولين–الحقيقة والمجاز– لم يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،لأن المراد من الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش، أنه لم يأت رسول من الله ولا كتاب بعبادة غير الله.(٢)

****

(١) انظر : التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٦٣٥

(٢) انظر: تفسير الجلالين (المحلي والسيوطي) صـ ٦٥١

المبحث الثالث

محظورات السؤال

السؤال ليس ترفا من القول، لذا ينبغي أن يكون لسبب وفائدة ، ومن بلاغة الكلام مراعاته لمقتضى الحال ، فإذا كان الحال لا يقتضي سؤالا ، أصبح تكلفا أو تعنتا أو لغوا يصان عنه بليغ الكلام .

وقد نهى الله المؤمنين عن السؤال فيما يؤدي إلى إساءتهم ، أو إلى العنت والمشقة عليهم ، أو فيما لا حاجة لهم به ، ولا تعلق له بالتكاليف ، أو بم يشعر استخفافا بالمسؤول ، أو ضجراً له ، أو عما لا يقع ونحوه .

قال تعالى: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾] {المائدة: ١٠١، ١٠٢}

ورد في سبب نزول الآية أحاديث صحيحة : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَنْ أَصْحَابِهِ شيءٌ فَخَطَبَ فَقَالَ:« عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ». قَالَ فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ – قَالَ – غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ[1]– قَالَ – فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ

(١) الخنين : بكاء له صوت فيه غنة.

نَبِيًّا - قَالَ - فَقَامَ ذَاكَ الرَّجُلُ [عَبْد اللَّهِ بْنِ حُذَافَة] فَقَالَ: مَنْ أَبِي قَالَ « أَبُوكَ فُلاَنٌ» فَنَزَلَتْ [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ]. (١)

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: أخبرني عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ ، قَالَ : قَالَتْ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ: مَا سَمِعْتُ بِابْنٍ قَطُّ أَعَقَّ مِنْكَ ، أَأَمِنْتَ أَنْ تَكُونَ أُمُّكَ قَدْ قَارَفَتْ بَعْضَ مَا تُقَارِفُ نِسَاءُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فَتَفْضَحَهَا عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ: وَاللَّهِ لَوْ أَلْحَقَنِي بِعَبْدٍ أَسْوَدَ لَلَحِقْتُهُ. (٢)

وفي رواية أخرى عَنْ أَنَسٍ–رضى الله عنه– قَالَ سَأَلُوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ ، فَصَعِدَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ الْمِنْبَرَ فَقَالَ «لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ بَيَّنْتُ لَكُمْ». فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالاً ، فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ رَأْسُهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ كَانَ إِذَا لاَحَى يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَنْ أَبِي فَقَالَ « أَبُوكَ حُذَافَةُ». ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْفِتَنِ . فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم «مَا رَأَيْتُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، إِنَّهُ صُوِّرَتْ لِي الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَائِطِ». قَالَ قَتَادَةُ: يُذْكَرُ هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَ هَذِهِ الآيَةِ [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ]. (٣)

---

(١) صحيح البخاري كتاب الدعوات باب(٣٥) التَّعَوُّذِ مِنَ الْفِتَنِ .حديث رقم(٦٣٦٢) وصحيح مسلم (واللفظ له) كتاب الفضائل باب (٣٧) تَوْقِيرِهِ –صلى الله عليه وسلم– وَتَرْكِ إِكْثَارِ سُؤَالِهِ عَمَّا لاَ ضَرُورَةَ إِلَيْهِ أَوْ لاَ يَتَعَلَّقُ بِهِ تَكْلِيفٌ وَمَا لاَ يَقَعُ وَنَحْوِ ذَلِكَ. حديث رقم(٦٢٦٨) .

(٢) صحيح مسلم (واللفظ له) كتاب الفضائل باب (٣٧) تَوْقِيرِهِ –صلى الله عليه وسلم– وَتَرْكِ إِكْثَارِ سُؤَالِهِ عَمَّا لاَ ضَرُورَةَ إِلَيْهِ أَوْ لاَ يَتَعَلَّقُ بِهِ تَكْلِيفٌ وَمَا لاَ يَقَعُ وَنَحْوِ ذَلِكَ. حديث رقم(٦٢٧٠) .

(٣) صحيح البخاري كتاب الدعوات باب(٣٥) التَّعَوُّذِ مِنَ الْفِتَنِ حديث رقم(٧٠٨٩)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رضى الله عنهما - قَالَ كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- اسْتِهْزَاءً ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِى ؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ: أَيْنَ نَاقَتِى ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ] حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا . (١)

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي عَنْ أَبِى الْبَخْتَرِىِّ عَنْ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ [وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا] {آل عمران:٩٧} قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفِي كُلِّ عَامٍ فَسَكَتَ. فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفِي كُلِّ عَامٍ قَالَ «لاَ وَلَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ]. (٢)

ولا مانع من أن تتعدد الأسباب، وما في الصحيح أصح. كما قال الإمام ابن حجر. (٣) فهو أولى من غيره .

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قَوْلِهِ { لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ } حديث رقم ٤٦٢٢

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد ١/ ١١٣ حديث رقم(٩٠٥) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف. وسنن الترمذي باب (٥) ما جاء : كم فرض الحج ؟حديث رقم(٨١٤) قال الترمذي : وَفِى الْبَابِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِى هُرَيْرَةَ. ثم قَالَ : حَدِيثُ عَلِىٍّ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَاسْمُ أَبِى الْبَخْتَرِىِّ سَعِيدُ بْنُ أَبِى عِمْرَانَ وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ فَيْرُوزَ.أ. هـ وضعفه الألباني. وقال ابن كثير في التفسير ٣/ ٢٠٥ : وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَسَمِعْتُ الْبُخَارِيَّ يَقُولُ: أَبُو الْبَخْتَرِيِّ لَمْ يُدْرِكْ عَلِيًّا.أ.هـ

(٣) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٨/ ١٣٢ط/ دار الريان للتراث، ط/الثالثة ١٤٠٧هـ

والنهي عن السؤال في الآية ليس على إطلاقه، وإنما مقيد بكونه عن أشياء [إِن تُبْدَ] أي تظهر [لَكُمْ تَسُؤْكُمْ]، فقوله: [إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ] في محل جر صفة لأشياء، أي أشياء إن ظهرت لكم ساءتكم. وإلا فالسؤال عند الحاجة مطلوب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالسؤال فيما لا بد منه، وبه تستقيم أمور الإنسان، بل إنه – صلى الله عليه وسلم – عاتب الجاهل على عدم السؤال .

عَنْ جَابِرٍ قَالَ خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ فَقَالُوا مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ « قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلاَّ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ ».أَوْ «يَعْصِبَ». شَكَّ مُوسَى « عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ ». (١) ومُوسَى هو بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَنْطَاكِيُّ شيخ أبي داود .

والمراد بالْعِيِّ في الحديث الجهل ، و«يَعْصِرَ»: أي يقطر عليها الماء والمراد به أن يمسح على الجراحة . أَوْ « يَعْصِبَ » أي : يشد . « ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا» أي على الخرقة بالماء .

قال الإمام الخطابي: في هذا الحديث من العلم أنه عابهم بالفتوى بغير علم وألحق بهم الوعيد بأن دعا عليهم وجعلهم في الإثم قتلة له.(٢)

---

(١) سنن أبي داود باب(١٢٧) [في] المجروح يتيمم حديث رقم (٣٣٦) قال الشيخ الألباني: حسن دون قوله إنما كان يكفيه.انظر:سنن أبيداود١/١٤٥الناشر: دارالفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد.

(٢)عون المعبود شرح سنن أبيداود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبوالطيب ١/٣٦٧ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٥هـ

وعليه فالآية لا تنهه عن مطلق السؤال، والسؤال المنهي عنه هو الذي فيه المساءة، ومن صور المساءة، تلك الأسئلة التي لا فائدة من العلم بها، بل العلم بها قد يسوء المرء، ويوغر الصدر، ويشغل الفكر ، ويضيع الزمان فيما لا فائدة منه، وذلك على نحو ما ورد في سبب النزول في شأن عبد الله بن حذافة، فكان من الممكن أن يخبر بما يكره معرفته، ولذا عاتبته أمه بقولها "أَأَمِنْتَ أَنْ تَكُونَ أُمُّكَ قَدْ قَارَفَتْ بَعْضَ مَا تُقَارِفُ نِسَاءُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فَتَفْضَحَهَا عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ "، أيضا تلك الأسئلة التي تشعر باستخفاف المسؤول ، وتؤدى به إلى الضجر والضيق ، لا سيما فيما لا حاجة له ، وهذا ما استشعره سيدنا عمر – رضي الله تعالى عنه– حينما أحفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسألة ، واعتذر عما بدر منهم بقوله { رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْفِتَنِ } .

أيضا تلك الأسئلة التي قد تكون سببا في التكليف بالشاق من الأمور ، وذلك نحو ما جاء في حديث الحج ، وقد ورد في الصحيح عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا ». فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ – ثُمَّ قَالَ – ذَرُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ ».(١)

وعليه لا يأمن السائل عن هذه الأمور المسكوت عنها أن يكون داخلا في الوعيد الذي جاء في حديث سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « إِنَّ

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحج باب(٧٣) فَرْضِ الْحَجِّ مَرَّةً فِى الْعُمْرِ.حديث رقم (٣٣٢١)

أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». (١)

وكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ اكْتُبْ إِلَيَّ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهْوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » وَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّهُ كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ وَوَأْدِ الْبَنَاتِ وَمَنْعٍ وَهَاتِ. (٢)

والمراد بكثرة السؤال في الحديث، إما أن يكون من سؤال الناس أموالهم والاستكثار منه، أو سؤال المرء عما نهى عنه من المتشابه الذي تعبدنا بظاهره، أو السؤال من رسول الله عن أمور لم يكن لهم بها حاجة .

قال الخطابي: وجاءت المسائل في كتاب الله على ضربين أحدهما محمود كقوله تعالى: [يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ] {البقرة:٢١٥} ونحوه من الأشياء المحتاج إليها في الدين ولهذا

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاعتصام باب (٣) مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لاَ يَعْنِيهِ . حديث رقم (٧٢٨٩) وصحيح مسلم واللفظ له ، باب (٣٧) تَوْقِيرِهِ –صلى الله عليه وسلم– وَتَرْكِ إِكْثَارِ سُؤَالِهِ عَمَّا لاَ ضَرُورَةَ إِلَيْهِ أَوْ لاَ يَتَعَلَّقُ بِهِ تَكْلِيفٌ وَمَا لاَ يَقَعُ وَنَحْوِ ذَلِكَ. حديث رقم(٦٢٦٥)

(٢) صحيح البخاري كتاب الاعتصام باب (٣) مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لاَ يَعْنِيهِ ،حديث رقم(٧٢٩٢)

قال: [فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾] {النحل:٤٣} والآخر مذموم كقوله: [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ] {الإسراء:٨٥} ونحوه مما لا ضرورة بهم إلى علمه.(١)

وقال ابن الأثير: السُّؤَالُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَالْحَدِيثِ نوعَانِ: أحدُهُما مَا كَانَ عَلَى وجْهِ التَّبْيِين والتَّعلُّم مِمَّا تَمَسُّ الحاجةُ إِلَيْهِ، فَهُوَ مُبَاحٌ، أَوْ مندُوبٌ، أَوْ مأمورٌ بِهِ، وَالْآخَرُ مَا كانَ عَلَى طَرِيق التَّكلُّف والتعنُّت، فَهُوَ مكرُوه، ومَنْهِيٌّ عَنْهُ. فكُلّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا الوَجْه وَوَقَعَ السكوتُ عَنْ جَوَابه فَإِنَّمَا هُو رَدْع وزَجْر للسَّائل، وَإِنْ وقَعَ الجَوابُ عَنْهُ فَهُوَ عُقُوبَةٌ وتغليظٌ.

وَمِنْهُ الْحَدِيثُ «أَنَّهُ نَهَى عَنْ كَثْرة السُّؤَال» قِيلَ هُوَ مِنْ هَذَا. وَقِيلَ هُوَ سُؤَالُ النَّاسِ أَمْوالَهُم مِنْ غَيْرِ حاجَة. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ «أَنَّهُ كَرِه الْمَسَائِلَ وعابَها» أرادَ الْمَسَائِلَ الدَّقِيقة الَّتِي لَا يُحْتاج إِلَيْهَا. وَمِنْهُ حَدِيثُ الْمُلاعَنَة «لَّما سَأَلَهُ عَاصِمٌ عَنْ أَمْرِ مَنْ يَجِدُ مَعَ أَهْلِهِ رَجُلًا، فَأَظْهَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكراهَة فِي ذَلِكَ» إِيثَارًا لستْر العَوْرة وَكَرَاهَةً لهْتك الحُرْمة.(٢)

قوله: [وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ] {المائدة:١٠١} فيه أقوال بناء على مرجع الضمير في { وا }:

الأول: أنه يعود على الأشياء المنهي عنها، والمعنى: وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه، تبد لكم تلك

---

(١) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري لمحمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني ٨/ ٢٢ الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان ، طبعة ثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٣٢٨ الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي

التكاليف الصعبة التي تسؤكم، وتؤمروا بتحملها، فتعرّضون أنفسكم لغضب اللّه بالتفريط فيها.(١)

الثاني: أنه يعود على أشياء أخرى، والمعنى: وإن تسألوا عن غيرها مما مست الحاجة إليه، فحذف المضاف. وهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾] {المؤمنون:١٢} يَعْنِي آدَمَ، ثُمَّ قَالَ: [ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً] {المؤمنون:١٣} أي ابْنَ آدَمَ، لِأَنَّ آدَمَ لَمْ يُجْعَلْ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، لَكِنْ لَمَّا ذُكِرَ الْإِنْسَانُ وَهُوَ آدَمُ دَلَّ عَلَى إِنْسَانٍ مِثْلِهِ، وَعُرِفَ ذَلِكَ بِقَرِينَةِ الْحَالِ، فَالْمَعْنَى وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ مِنْ تَحْلِيلٍ أَوْ تَحْرِيمٍ أَوْ حُكْمٍ، أَوْ مَسَّتْ حَاجَتُكُمْ إِلَى التَّفْسِيرِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ فَحِينَئِذٍ تُبْدَ لَكُمْ، فَقَدْ أَبَاحَ هَذَا النَّوْعَ مِنَ السُّؤَالِ: وَمِثَالُهُ أَنَّهُ بَيَّنَ عِدَّةَ الْمُطَلَّقَةِ وَالْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا والحامل،وَلَمْ يَجْرِ ذِكْرُ عِدَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرْءٍ وَلَا حَامِلٍ، فَسَأَلُوا عَنْهَا فَنَزَلَ [وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ] {الطلاق:٤}. فالنهي إذا في شي لَمْ يَكُنْ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّؤَالِ فِيهِ، فَأَمَّا مَا مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فَلَا.(٢)

الثالث : أن في الآية تقديما وتأخيرا ، فالشرطية الأولى مؤخرة في المعنى عن الثانية ، وكذا فعل النهي موخر في المعنى عنهما ، والمعنى : إذا سألتم عن أشياء في زمنه يترل القرآن بإبدائها ، ومتى أبداها ساءتكم فلا تسألوا عنها .(٣)

---

(١) انظر : الكشاف للزمخشري ١/ ٦٨٤

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/٣٣٣، ٣٣٤ دار الكتب المصرية ط: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

(٣) انظر : حاشية الجمل على الجلالين ٢/ ٢٩٩، ٣٠٠

وهذا الثالث وما قبله لا أميل إليهما ، لما فيهما من التكلف والإضمار وعود الضمير إلى غير مذكور ، فضلا عن أن " الكلام إذا استقام من غير تغيير في النظم ، لم يجز المصير إلى التقديم والتأخير. "(١)

وما أميل إليه هو القول الأول ، وهو أكثر استقامة وموافقة لسياق ما هو عنه ، وأدخل في الزجر ، وأكثر مواءمة لما ورد في سبب نزول الآية ، وعليه يكون المعنى : لا تسألوا عن أشياء تسؤكم عاقبة الإجابة عليها ، وإن سألتم عنها في وقت نزول القرآن في حياته صلى الله عليه وسلم ، فلا مناص من إبدائها والإجابة عليها ، بما يكون سببا في العنت والمشقة عليكم ، بنحو إيجاب ما لم يكن واجبا ، أو تحريم ما لم يكن محرما . ولا يخفى أنه بانقطاع الوحي بموته صلى الله عليه وسلم ،لا يتعلق بسبب السؤال إيجاب ولا تحريم .

قال البيضاوي: الشرطية وما عطف عليها صفتان لأشياء والمعنى: لا تسألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن أشياء إن تظهر لكم تغمكم ، وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم، وهما كمقدمتين تنتجان ما يمنع السؤال وهو أنه مما يغمهم والعاقل لا يفعل ما يغمه. (٢)

وقوله [عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا] استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتِهم عن المَساءة ، بل لأنها في نفسها معصيةٌ مستتبِعةٌ للمؤاخذة ، وقد عفا عنها ، وفيه مِنْ حثّهم على الجِدّ في الانتهاء عنها ما لا يخفى ، وضميرُ [عَنْهَا] للمسألة المدلول عليها بـ [لَا تَسْـَٔلُوا] أي عفا الله تعالى عن مسائلِكم السالفةِ ... وتجاوَزَ عن عقوبتكم الأخروية بسائر

---

(١) انظر : التفسير الكبير للرازي ١٢/ ٤٤٥

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٤٥،١٤٦/٢ المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

مسائلكم ، فلا تعودوا إلى مثلها... [وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ] اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لعفوه تعالى أي مبالغٌ في مغفرة الذنوب والإغضاءِ عن المعاصي ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخِذْكم بعقوبة ما فَرَط منكم. (١) والضمير في قوله :[قَدْ سَأَلَهَا] إما أن يعود على الأشياء ، أي سأل الأشياء التي يسوء ظهورها ، أو يعود على المسألة المفهوم من قوله تعالى [لَا تَسْئَلُوا] ، أي سألوا هذه المسألةَ لكنْ لا عينَها بل مثلَها في كونها محظورةً ومستتْبِعة للوبال ، وعدمُ التصريح بالمثل للمبالغة في التَّحذيرِ. (٢)

[قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ] كثمود حيث سألوا صالحا الناقة ، وقوم عيسى حيث سألوه مائدة من السماء ، وبني إسرائيل حيث قالوا لموسى: [أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً] {النساء:١٥٣} . [ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا] أي بسببها [كَافِرِينَ] ، حيث تركوا العمل بموجبها والإيمان بها فهلكوا

وفي سياق هذا المعنى قوله تعالى في سورة البقرة :[أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾] {البقرة:١٠٨}

قال الواحدي : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ(٣) وَرَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ اجْعَلْ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، وَوَسِّعْ لَنَا أَرْضَ مَكَّةَ، وَفَجِّرِ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا نُؤْمِنْ بِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود ٣/ ٨٥ ، ٨٦

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٣/ ٨٦

(٣) ترجمته في الإصابة ٢/ ٢٧٧(٤٥٤٣) وفيه: "قال مصعب الزبيري: كان عبد الله بن أبي أمية شديدًا على المسلمين، وهو الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا،

وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّ الْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تَمَنَّعُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَمِنْ قَائِلٍ يَقُولُ: يأتينا بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ جُمْلَةً كَمَا أَتَى مُوسَى بِالتَّوْرَاةِ، وَمِنْ قَائِلٍ يَقُولُ - وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ المخزومي - إِئْتِنِي بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ: مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِلَى ابْنِ أَبِي أُمية، اعلم أني قَدْ أَرْسَلْتُ مُحَمَّدًا إِلَى النَّاسِ؛ وَمِنْ قَائِلٍ يَقُولُ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. (١) أ.هـ (٢)

وكان شديد العداوة له. ثم هداه الله إلى الإسلام، وهاجر قبل الفتح ، فلقي النبي صلى الله عليه وسلم بطرف مكة هو وأبو سفيان بن الحارث". وهو صهر النبي صلى الله عليه وسلم وابن عمته عاتكة وأخو أم سلمة.

(١) قال ابن حجر: أما الأول [يعني أثر الواحدي عن ابن عباس] فذكره الثعلبي ولعله من تفسير الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، فإني وجدته عن ابن عباس بسند جيد لكنه مغاير له أخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك، فأنزل الله تعالى: [أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ] {البقرة:١٠٨} الآية. وقد قال الثعلبي عقب الأول: قال مجاهد: لما قالت قريش هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم، وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن لم تؤمنوا فأبوا ورجعوا قال: الصحيح أنها نزلت في اليهود حين قالوا يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة قال الثعلبي: ويصدق هذا القول أن هذه السورة مدنية، وقد قال تعالى:[يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ] {النساء:١٥٣}فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا[أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً] {النساء:١٥٣}انتهى. وفيما حاوله نظر فإن أثر مجاهد المذكور صريح في أن السائل في ذلك هم قريش كذا أخرجه الفريابي والطبري وابن أبي حاتم صحيحا إليه قال: سألت قريش محمدا أن يجعل لهم الصفا ذهبا، فقال: نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل فأبوا ورجعوا لكن لم يقل: إن هذه الآية نزلت في ذلك. وأما ما نقله الواحدي عن المفسرين فأومأ به إلى الجمع بين ما نقله الثعلبي عن ابن عباس ثم عن مجاهد.أ. هـ العجاب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني ١/٣٥٠- ٣٥٢ الناشر: دار ابن الجوزي.

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي، النيسابوري، صـ ٣٤، ٣٥ المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان ، الناشر: دار الإصلاح – الدمام ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

قال ابن حجر: وقد جاء عن إمام كبير من المفسرين سبب آخر أوضح مما نقله وأولى بأن يكون سببا لنزول هذه الآية، وهو ما أخرجه ابن أبي حاتم [١] بسند قوي عن أبي العالية ، وهو من كبار التابعين قال في قوله تعالى:[أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ] الآية قال: قال رجل يا رسول الله: لو كانت كفارتنا ككفارات بني إسرائيل؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا نبغيها، ثلاثا، ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، كان أحدهم إذا أصاب الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه، وكفارتها. فإن كفرها كانت له خزيًا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الدنيا[٢]والآخرة فأعطاكم الله خيرا مما أعطاهم [وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾]{النساء:١١٠}فنزلت [٣] [أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ]{البقرة:١٠٨}الآية.[٤]

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ١/ ٣٢٩ (١٠٨٣) ومن قبله الطبري "٢/ ٤٩١(١٧٨٣) وعنهما السيوطي في "الدر١/ ٢٦٠ ، وقد تصرف الحافظ قليلًا واختصر. قال محقق "تفسير ابن أبي حاتم" الدكتور الزهراني: في سنده علتان: إحداهما الإرسال من أبي العالية، والثانية: اضطرب رواية أبي جعفر عن الربيع. وقال الشيخ أحمد شاكر: "هذا الحديث مرسل.. وأبو العالية: ثقة من كبار التابعين ولكن الاحتجاج بحديثه - كغيره من التابعين فمن بعدهم- هو في الإسناد المتصل، أما المرسل والمنقطع فلا حجة فيهما". قلت: ولو علل برواية ابن أبي جعفر لكان أولى. وقد مر الكشف عنه. وأما الرجوع إلى قول التابعين فانظر إلى ما قاله عنه الشيخ ابن تيمية في "مقدمة التفسير في الفتاوى" "١٣/ ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٦١، ٣٦٩، ٣٦٨، ٣٧٠". [انظر تحقيق الكتاب]

(٢) لم تذكر "الدنيا " في المصادر الثلاثة، فهي من تصرف الحافظ سهوًا. والله أعلم.

(٣) قبل هذه الكلمة في "تفسيري ابن أبي حاتم" و"الطبري" "وقال صلى الله عليه وسلم: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن"، وقال: " من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشرة أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك"، "فأنزل الله عز وجل ... وأرى أن سياق الآيات أبعد وأشمل من أن يكون المقصود به هذا. والله أعلم. [انظر تحقيق الكتاب].

(٤) العجاب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني ١/٣٥٢

وأمْ في الآية منقطعة بمعنى بل، ومعنى الهمزةِ إنكارُ وقوعِ الإرادة منهم واستبعادُه لما أن قضية الإيمان وازعةٌ عنها وتوجيهُ الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها للمبالغة في إنكاره واستبعادِه ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادتُه فضلاً عن صدور نفسِه والمعنى بل أتريدون. (١)

أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكاري، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه، عليه السلام، رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: [يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ] {النساء:١٥٣}. (٢) وقوله: [كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ] {البقرة:١٠٨} نعت لمصدر محذوف، أي سؤالا مشبها لما سئله موسى عليه السلام .

قوله: { **وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر**} أي يختر ويأخذْه لنفسه { **بالإيمان**} بمقابَلتِه بدلا منه . وكان مقتضى الظاهرِ أن يقال وَمَن يفعلْ ذلك أي السؤالَ المذكورَ أو إرادتَه ، وإنما أوثر على ذلك مَا عليهِ النظمُ الكريمُ للتصريح من أول الأمرِ بأنه كفرٌ وارتدادٌ وأن كونَه كذلك أمرٌ واضحٌ غنيٌ عن الإخبارية بأن يقال ومن يفعلْ ذلك يكفُرْ حقيقٌ بأن يُعدَّ من المسلّمات ويُجعلَ مقدَّماً للشرْطية رَوْماً للمبالغة في الزجر والإفراط في الردع . { فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السبيل} أي عدَلَ وجارَ من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصِل إلى معالم الحق والهدى وتاه في تيه الهوى وتردى في مهاوي الردى ، وسواء السبيل من باب إضافةِ الوصفِ إلى الموصوف لقصد المبالغة في بيان قوة الاتصافِ كأنه نفسُ السواءِ على منهاج حصولِ الصورة في الصورة الحاصلة. (٣)

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود ١٤٤/١

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٨٢/١، ٣٨١

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١٤٥/١ بتصرف يسير .

والمراد من الآية ذم من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم تعنتا وعنادا ، كما سألت بنو إسرائيل موسى – عليه السلام – تعنتا وعنادا .

وفي سياق متصل ، نهى الله – عز وجل – نبيا من الأنبياء عن السؤال فيما ليس له به علم ، وهو سيدنا نوح عليه السلام ، قال تعالى: [وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ] {هود: ٤٥ – ٤٧}

وكأني بسيدنا نوح – عليه السلام – بدافع الرأفة والشفقة الغريزية على ابنه ، فهم من قوله تعالى: [حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾] {هود: ٤٠} ، فهم وعدا بنجاة جميع أهله ، ومنهم ابنه ، فبين له المولى – عز وجل – أنه ليس من أهله لأنه غير مؤمن ، فالتعويل ليس على النسب فقط ، وإنما على الدين أيضا ، فمن كان على غير الإيمان فليس من أهله ، ولو كان من صلبه ، فضلا عن كونه خارجا عن طوق النجاة للاستثناء المذكور في الوعد بقوله :[إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ] {هود: ٤٠}] ، وهكذا يقرر الحق سبحانه أن رابطة الدين هي الأقوى والأسمى . لذا عاتبه الله تعالى بقوله [قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾] {هود:٤٦}. أي فلا تطلب مني ما ليس لك به علم من إنجاء ابنك من العذاب .

ومعنى [مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ] أي: ما ليس لك به علم بأنه صواب أو غير صواب ، فيكون النهي واردا في مشتبه الحال ، ويفهم منه حال معلوم الفساد بطريق الأولى ، وهذا كما ترى صريح في أن نداءه – عليه الصلاة والسلام – ربه جل وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم إنجاء ابنه مع سبق وعده بإنجاء أهله وهو منهم كما قيل : فإن النهي عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة ، إذ عدم العلم بالشيء داع إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه ، بل هو دعاء منه بإنجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد ، ولكن الشفقة على البنوة والسجية البشرية حملته على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع العتاب ولذلك جاء برفق وتلطف في قوله:[إِنِّيٓ أَعِظُكَ][1]. إشارة إلى ترك الأولى، وهو ترك سؤال ما ليس له به علم.

وإنما سمي نداءه سؤالاً لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجازه في شأن ولده أو استفسار المانع للإنجاز في حقه ، وإنما سماه جهلاً وزجر عنه بقوله : [إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ] لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله ،قد دله على الحال وأغناه عن السؤال ، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتبه عليه الأمر .[2]

وتدارك نوح عليه السلام، ما بدر منه واعتذر لربه طالبا المغفرة والرحمة،[قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ] {هود:٤٧}

---

(١) حاشية الجمل على تفسير الجلالين ٣/ ٤٥٦

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣/ ١٣٦ ، ١٣٧

وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الأنبياء، وبيانه أن قوله [إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ] المراد منه السؤال.[(١)] وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله: [فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ] {هود:٤٦}، وقوله سبحانه وتعالى: [إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ] يدل على أن ذلك السؤال كان جهلاً ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه.

والجواب أن الله عز وجل كان قد وعد نوحاً عليه السلام بأن ينجيه وأهله، فأخذ نوح ظاهر اللفظ، واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر، ولم يعلم ما غاب عنه، ولم يشك في وعد الله سبحانه وتعالى، فأقدم على هذا السؤال، لهذا السبب فعاتبه الله عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم، وبين له أنه ليس من أهله الذي وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح، وأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه مغرق مع الذين ظلموا، ونهاه عن مخاطبته فيهم فأشفق نوح من إقدامه على سؤالِ ربه فيما لم يؤذن له فيه، فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ إلى ربه عز وجل وخشع له وعاذ به، وسأل المغفرة والرحمة، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام، سوى تأويله وإقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه، وهذا ليس بذنب ولا معصية. والله أعلم.[(٢)]

والعجلة في السؤال ليست محمودة، وقد يحرم الإنسان بسببها خيرا، وقد جاء النهي عن العجلة في السؤال في سياق قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام، فبعد رحلة المعاناة للوصول إلى العبد الصالح [قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا

---

(١) هذا على قول من قال إن الضمير في إنه يعود على السؤال الذي يتضمنه الكلام وقد فسره آخر الآية ويقوي هذا التأويل أن في مصحف ابن مسعود «إنه عمل غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم» .
انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣/ ١٧٧ المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ

(٢) لباب التأويل في معاني التزيل للخازن٢ / ٤٨٨ دار الكتب العلمية – بيروت ط: الأولى، ١٤١٥هـ

﴿٦٦﴾] {الكهف:٦٦}، والاستفهام فيه معنى العَرْض، يعرض نفسه علي العبد الصالح للتعلم ، ولا يخفى ما في التعبير من الأدب الوافر مع المعلم، مع ما لا يخفى من مقام النبوة العالي لموسى عليه السلام ، [قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾] {الكهف:٦٧} نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم وعلل ذلك واعتذر عنه بقوله: [وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾] {الكهف:٦٨} ،أي وكيف تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك، وخبراً تمييز أو مصدر ، لأن [لَمْ تُحِطْ بِهِۦ] بمعنى لم تخبره. (١)

قوله: [قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾] {الكهف:٦٩} تَأْمُرنِي بِهِ ، وَقَيَّدَ بِالْمَشِيئَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى ثِقَة مِنْ نَفْسه فِيمَا الْتَزَمَ وَهَذِهِ عَادَة الْأَنْبِيَاء وَالْأَوْلِيَاء أَنْ لَا يَثِقُوا إلَى أَنْفُسهمْ طرفة عين. ولم يقل الخضر إن شاء الله لأنه في مقام التعليم والمشاهدة بخلاف موسى فإنه في مقام التأدب والتقليد . (٢)

واعلم أن المتعلم على قسمين: متعلم ليس عنده شيء من العلوم ، ولم يمارس الاستدلال ، ولم يتعود التقرير والاعتراض ، ومتعلم حصل العلوم الكثيرة ، ومارس الاستدلال والاعتراض ، ثم إنه يريد أن يخالط إنسانا أكمل منه ليبلغ درجة الكمال ، فالتعلم في حق هذا القسم شاق شديد ، لأنه إذا رأى شيئا أو سمع كلاما فربما بما يكون ذلك منكرا بحسب الظاهر ، إلا أنه في الحقيقة صواب حق . (٣)

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣/ ٢٨٨

(٢) انظر : تفسير الجلالين المحلي والسيوطي صـ ٣٩١ وحاشية الجمل على تفسير الجلالين ٤/ ٤٥٧

(٣) انظر :حاشية الجمل على تفسير الجلالين ٤/ ٤٥٦

وهذا الشيء المنكر بحسب الظاهر يمكن أن يؤدي إلى الاعتراض ، مما قد يثير النفرة بين التلميذ والأستاذ ، لذا اشترط الخضر، و[قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ] {الكهف:٧٠} تشاهده من أفعالي أي لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلاً عن المناقشة والاعتراض [حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾] {الكهف:٧٠} ، أي حتى أبتدئ ببيانه وفيه إيذانٌ بأن كلَّ ما صدر عنه فله حكمةٌ وغايةٌ حميدةٌ البتة وهذا من أدب المتعلم من العالم والتابعِ مع المتبوع. (١) والمراد بالذكر هنا ذكر اللسان ، وإحداثه إنشاؤه وإبرازه .

وكثيرا ما يشتكي المعلمون، ويضيقون ذرعا ببعض الطلبة من ذوي العجلة، ففي أثناء ما يقوم المعلم بشرح قضية ما، فيعن لبعض الطلبة سؤال فيما يقوم الأستاذ بشرحه، فيعجل على أستاذه بالسؤال، فيشوش الفكرة، ويضيق الصدر، ويقطع حبل ما هو موصول من المعلومات، ولو تمهل هذا الطالب لانكشف له ما أراد السؤال عنه، وإلا فلينتظر حتى يفرغ الأستاذ مما فيه، ثم يعرض بأدب وتواضع ما عن له من أمور. ولذا ورد في الصحيح في سياق الحديث عن قصة موسى والخضر عليهما السلام، قوله صلى الله عليه وسلم: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا».(٢)صدقت سيدى يارسول الله، صلى الله عليك وسلم. وقد امتثل الصحابة الأمر، وكانوا أقل الناس سؤالا، عَن سَعِيد بْنِ جُبَيْر، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم ما سألوه إلاَّ عَنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً كُلُّهَا فِي الْقُرْآنِ:[يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ] {البقرة:٢١٩} [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ]{البقرة:٢١٧}، و[وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ] {البقرة: ٢٢٠}،قَالَ فَلَمَّا نَزَلَتْ: [وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ]{الأنعام:١٥٢}، عَزَلُوا طَعَامَهُمْ مِنْ

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٥

(٢) صحيح البخاري في كتاب التفسير (تفسير سورة الكهف) باب(٤) قَوْلِهِ { فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا } إِلَى قَوْلِهِ { عَجَبًا } حديث رقم : ٤٧٢٧

طَعَامِهِمْ فَنَزَلَتْ: [وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ] {البقرة: ٢٢٠} قَالَ: مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ إِلَّا عَمَّا يَنْفَعُهُمْ " (١)

قَالَ ابن عبدالبر: "لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ مِنَ الثَّلَاثَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً إِلَّا ثَلَاثٌ.(٢) وذكر الأثر كل من الزركشي والسيوطي في البرهان والإتقان، وذكرا أربعة عشرة آية مفتتحة ب-[يَسْئَلُونَكَ].(٣) والأثر في مجمله يدل على قلة سؤال الصحابة، وأن سؤالهم عادة كان يتعلق بالأمور التشريعية التي كانوا يحتاجون إليها، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

****

(١) مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار ١١/ ٢٤٧ (٥٠٦٥) الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة ، الطبعة: الأولى ، وجامع بيان العلم وفضله لابن بن عبد البر ٢/ ١٠٦٢ تحقيق: أبي الأشـبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م

(٢)جامع بيان العلم وفضله لابن بن عبد البر ٢/ ١٠٦٢

(٣)انظر البرهان للزركشي ٤/ ٥٢، ٥٣ ، والإتقان للسيوطي ٢/ ٢٠٣

المبحث الرابع

السؤال سبب للنزول

القرآن الكريم نزل ليخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وهذا هو السبب العام أو الرئيس لنزوله ، وكان هناك في عمر الدعوة المحمدية مناسبات وملابسات معينة ، بسببها نزلت بعض آيات القرآن ، وهذ الأمر يعرف بأسباب النزول.

وسبب النزول لا يخرج عن أحد أمرين : أولهما: أن تحدث حادثة ما فينزل بسببها قرآن. ثانيها : أن يسأل رسول – الله صلى الله عليه وسلم – عن أمر ، فينزل القرآن بالجواب. وهكذا كان السؤال من أبرز أسباب نزول آيات من القرآن الكريم ، ولا يخفى أنه من حكم تنجيم القرآن الكريم هو مسايرة أحداث الدعوة بالإجابة على تلك الأسئلة التي كانت تعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي هذا دلالة ظاهرة على كون القرآن من لدن حكيم خبير ، ولو كان من عند محمد صلى الله عليه وسلم لما انتظر إجابة وحي الله إليه عما سئل عنه .

ومادة " سأل" تتطلب سائلا ومسؤولا وجوابا ، والسائلون لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – المسلمون والمشركون وأهل الكتاب ، وسؤال المشركين وأهل الكتاب كان لاختبار صدقه صلى الله عليه وسلم في دعواه النبوة ، وقد يكون تعسفا وتعنتا ، وكثيرا ما تكون الأسئلة عن أمور غيبية ، لا سبيل لمعرفتها إلا بوحي .

ومن البداهة أن يكون السؤال – الذي يكون سببا للنزول – سابقا على الآية التي جاءت بالجواب ، ويدخل في هذا تلك الآيات المفتتحة بـ {يَسْـَٔلُونَكَ} ونظيراتها كـ [يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ] {النساء:١٥٣} و [سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١]{المعارج:١} .

هذا على خلاف ما ذكره الكرماني معللا اقتران الأمر بالجواب بالفاء في آية سورة طه وهي قوله تعالى [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾] {طه:١٠٥} وعدم اقترانها بالأمر بالجواب في آيات أخرى كقوله تعالى: [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ] {البقرة:١٨٩} وقوله: [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ] {البقرة:٢١٧} وقوله: [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾] {البقرة:٢١٩}

في بيان سر هذا الاقتران قال الكرماني : جميع ما جاء في القرآن من السؤال وقع عقبه الجواب بغير الفاء إلا في قوله [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى] فإنه أجيب بالفاء لأن الأجوبة في الجميع كانت بعد السؤال وفي طه قبل وقوع السؤال فكأنه قيل إن سئلت عن الجبال فقل ينسفها ربي.(١) وعليه فالفاء واقعة في جواب شرط مقدر على نحو ما ذكر.

وهذا التأويل مبني على فرض أن الآية لم يرد فيها سبب نزول ، وهذا غير مسلم به ، فضلا عن مباينته لظاهر النظم الذي يدل على سبق السؤال على الآية . وورد في سبب نزولها أن رجالا من ثقيف أتوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس.(٢) وأخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال : قالت قريش يا محمد كيف يفعل ربك في الجبال يوم

---

(١) أسرار التكرار في القرآن للكرماني ص٤١ الناشر : دار الاعتصام – القاهرة الطبعة الثانية ، ١٣٩٦ تحقيق : عبد القادر احمد عطا . وذكر هذا أيضا الزركشي في البرهان في علوم القرآن ١/ ١١٦

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٥/٣٢٢ الناشر : المكتب الإسلامي-بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ

القيامة؟ فنزلت [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ] الآية [(١)] قال الألوسي : والسائلون في آية [طه] هم منكروا البعث من قريش على ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج ، قالوا على سبيل الاستهزاء ، كيف يفعل ربك بالجبال يوم القيامة ؟ وقيل : جماعة من ثقيف وقيل : أناس من المؤمنين. [(٢)]

لذا لا داعي لتكلف التأويل في انفراد أية [طه] بالفاء، والأولى من ذلك ما ذكروه من أن الفاء إشارة إلى الأمر بالمبادرة بالجواب عقب هذا السؤال الذي يتعلق بأصول الدين.

قال الألوسي : إن السؤال المذكور إما عن قدم الجبال أو عن وجوب بقائها وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين ، فلا جرم أمر صلى الله عليه وسلم أن يجيبه بالفاء المفيدة للتعقيب كأنه سبحانه قال : يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال من غير تأخير لأن القول بقدمها أو وجوب بقائها كفر ، ودلالة الجواب على نفي ذلك من جهة أن النسف ممكن لأنه ممكن في كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكناً في حق كل الجبل فليس بقديم ولا واجب الوجود لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف. [(٣)]

وسواء أكان السؤال استهزاءً ، أو استرشادا على فرض أن السائل أناس من المؤمنين ، فقد أخبرنا الله بمصير الجبال يوم القيامة، [فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا] أي يَقْلَعُها من أُصُولِها ، ويدكها ويذريها تذرية.[(٤)] والمعنى: يفتتها ذرات ويجعلها كالرمل السائل، ثم يطيرها كالريح .

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي صـــ ١٤٦ الناشر : دار إحياء العلوم – بيروت

(٢) انظر : روح المعاني للالوسي ١٦/ ٢٦١

(٣) انظر : روح المعاني للالوسي ١٦/ ٢٦١، ٢٦٢

(٤) انظر : تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى، الزَّبيدي ٢٤ / ٤٠١ الناشر: دار الهداية.

ومن اللافت للنظر ، أن الصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤالا ، كان سببا لنزول آية بالجواب ، وجاءت الآية بأسلوب يدل على الاستقبال ، أعني بذلك قوله تعالى : [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾] {البقرة:١٨٦} .

أخرج ابن جرير عن الحسن قال: سأل أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم- النبيَّ صلى الله عليه وسلم: أين ربُّنا؟ فأنزل الله تعالى ذكره: [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ]الآية. (١)

والفعل الماضي بعد " إذا " ماض في اللفظ ، مستقبل في المعنى ، كما في قوله تعالى: [فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾] {القيامة:١٨}، فقوله: [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي] يدل ظاهره أن العباد سيسألون مستقبلا ، كما لو قلت لزميلك : إذا سألك فلان عني فأنا موجود في البيت. وهنا سؤال : لِمَ لَمْ تأت الآية على نسق :[يَسْأَلُونَكَ] ونحوها ؟ وأتت بأسلوب الشرط الذي يفيد الاستقبال.

أقول: مع صرف النظر عما ورد في سبب النزول ، وما قيل فيه على نحو ما ذكر العلامة المحقق الأستاذ: أحمد شاكر في تحقيقه لجامع البيان لابن جرير ، وقد يدل مجموع الرويات على أن السؤال وقع بالفعل. أقول مع صرف النظر عن سبب النزول ، فالآية فيها من البلاغة ما يستدعي التأمل ، فالآية جاءت بأسلوب الشرط ، وجملة الشرط مصدرة بـ

---

(١) جامع البيان لابن جرير ٣/ ٤٨١ قال محققه الشيخ أحمد شاكر (رحمه الله) : وهذا الإسناد صحيح إلى الحسن. ولكن الحديث ضعيف، لأنه مرسل، لم يسنده الحسن عن أحد من الصحابة. وقد رواه أبو جعفر هنا، من طريق عبد الرزاق، ولم أجده في تفسير عبد الرزاق. فلعله في موضع أخر من كتبه. أ. هـ وقال السيوطي في اللباب صـ ١٧ : مرسل وله طرق أخرى .

" إذا " دون غيرها من أدوات الشرط ، وهي تفيد التحقيق ، والأصل فيها أن يكون الشرط مقطوعا بوقوعه كقولك : إذا طلعت الشمس آتيك . وعليه فسؤال عباد الله عن الله أمر محقق ، طمعا في فضله ورضاه ، وهكذا ينبغي أن يكونوا ، و"يحتمل أن السؤال عن القرب والبعد كما يدل عليه قوله: [فَإِنِّي قَرِيبٌ] ويحتمل أن السؤال عن إجابة الدعاء ، كما يدل على ذلك قوله : [أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ] ويحتمل أن السؤال عما هو أعمّ من ذلك ، وهذا هو الظاهر ، مع قطع النظر عن السبب". (١) وعلى كل ، فالله عز وجل قريب .

أضف إلى هذا التحقيق الذي تفيده " إذا " التكرار المستفاد من "إذا " أيضا " ، ولا يخفى ما في التكرار من معنى الاستقبال ، كان المعنى حينئذ : كلما سأل عبادى عني في أي زمان وفي أي مكان ، فإني قريب ، وهذا فيه دلالة على استمرار معية الله لعباده المخلصين أينما وكيفما كانوا.

ومن لطائف الآية أنه تعالى قال [فَإِنِّي قَرِيبٌ] دون أن يقول «**فقل إني قريب**» كما قال في سائر الأسئلة والأجوبة. وذلك في مواضع من كتابه [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى] {الإسراء:٨٥} [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ] {البقرة: ٢٢٠} [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى] {البقرة:٢٢٢} .

قيل: حذفت للإشارة إلى أن العبد في حالة الدعاء مستغن عن الواسطة ، وهو دليل على أنه أشرف المقامات ، فان الله سبحانه لم يجعل بينه وبين الداعي واسطة ، وفي غير حالة الدعاء تجيء الواسطة. وأيضا في مقام السؤال قال: عِبادِي وهذا يدل على أن العبد له، وفي مقام الإجابة قال [فَإِنِّي قَرِيبٌ] وهذا يدل على أنه للعبد. وأيضا لم يقل «العبد مني

(١) انظر : فتح القدير للشوكاني ١/ ٢١٢

قريب» بل قال [فَإِنِّي قَرِيبٌ] منه إشارة إلى أنه ما للتراب ورب الأرباب وإنما يصل من حضيض الإمكان الذاتي إلى ذروة الوجود والبقاء بفضل الواجب وفيضه. (١)

وبتتبع آيات القرآن الكريم التي كانت تنزل بسبب السؤال ، نلحظ أن هذه الآيات قد يأتي فيها ما يدل على أن الناس سألوا هذا السؤال بـ [يَسْأَلُونَكَ] ونحوها ، وقد لا يأتي ، ويكون النص عاما ، لا يعلم سبب نزولها الخاص إلا أولو العلم من الناس ، ومن ذلك على سبيل المثال ما ورد في سبب نزول قوله تعالى [إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾] {البقرة:١٥٨}

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عن عَائِشَةَ – رضى الله عنها – قالت : إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِى الأَنْصَارِ كَانُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ ، وَكَانَتْ مَنَاةُ حَذْوَ قُدَيْدٍ ، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – عَنْ ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى [إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا] . (٢)

وما ورد في سبب نزول آيات اللعان ، [وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن

---

(١) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للقمي النيسابوري ١/ ٥٠٩، ٥١٠ بتصرف يسير جدا . المحقق: الشيخ زكريا عميرات الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت ، ط: الأولى١٤١٦هـ والبرهان للزركشي ٤/ ٥٤

(٢) البخاري في الحج باب (١٠) يَفْعَلُ فِى الْعُمْرَةِ مَا يَفْعَلُ فِى الْحَجِّ حديث رقم (١٧٩٠)

كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾] {النور: ٦-٩}.

عَنِ الزُّهْرِىِّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَجُلاً أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ رَجُلاً رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلاً أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمَا مَا ذُكِرَ فِى الْقُرْآنِ مِنَ التَّلاَعُنِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « قَدْ قُضِىَ فِيكَ وَفِى امْرَأَتِكَ » . قَالَ فَتَلاَعَنَا ، وَأَنَا شَاهِدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَفَارَقَهَا فَكَانَتْ سُنَّةً أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْمُتَلاَعِنَيْنِ وَكَانَتْ حَامِلاً ، فَأَنْكَرَ حَمْلَهَا وَكَانَ ابْنُهَا يُدْعَى إِلَيْهَا ، ثُمَّ جَرَتِ السُّنَّةُ فِى الْمِيرَاثِ أَنْ يَرِثَهَا ، وَتَرِثَ مِنْهُ مَا فَرَضَ اللَّهُ لَهَا . (١)

وعلى كل ، فسواء أكان في الآية ما يدل على سبب خاص لنزولها أم لا ، - فالعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

****

(١) البخاري في التفسير باب(٢) { وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }. حديث رقم(٤٧٤٦)

المبحث الخامس

الاستفهام وأدواته

مادة الاستفهام هي:[ف ، ه ، م] ، والْفَهْمُ: هيئة للإنسان بها يتحقّق معاني ما يحسن، يقال: فَهِمْتُ كذا، وقوله: [فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ] {الأنبياء:٧٩} (١)، وذلك إمّا بأن جعل الله له من فضل قوّة الفهم ما أدرك به ذلك، وإمّا بأن ألقى ذلك في روعه، أو بأن أوحى إليه وخصّه به، وأَفْهَمْتُهُ: إذا قلت له حتى تصوّره ، والِاسْتِفْهَامُ: أن يطلب من غيره أن يُفَهِّمَهُ. (٢) فالاستفهام كما تدل صيغة الاستفعال هو طلب الفهم ، فالهمزة والسين والتاء للطلب ، على نحو ما هو معروف.

وعليه فالاستفهام استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن ، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق، كقولك : أقام زيد ؟ وأزيد قائم ؟ وإلا فهو التصور كقولك: أزيد في البيت أم عمرو.(٣)

---

(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ مسندا إلى ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِـه: [وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ] {الأنبياء:٧٨} قَالَ: كَرْمٌ قَدْ أَنْبَتَتْ عَنَاقِيدُهُ، فَأَفْسَدَتْهُ. قَالَ: فَقَضَى دَاوُدُ بِالغَنَم لِصَاحِبِ الكَرْم، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: غيرُ هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ! قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: تَدْفَعُ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ، فَيَقُومُ عَلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، وَتَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْكَرْمِ فيُصيب مِنْهَا حَتَّى إِذَا كَانَ الْكَرْمُ كَمَا كَانَ دَفَعْتَ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِهِ، وَدَفَعْتَ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} .وَهَكَذَا رَوَى العَوْفِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. انظر جامع البيان لابن جرير١٨/ ٤٧٤، ٤٧٥ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٣٥٥

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ ٦٤٦

(٣) انظر: التعريفات للجرجاني صـ ٣٧

أدوات الاستفهام :

الألفاظ الموضوعة للاستفهام هي : الْهَمْزَةُ وَهَلْ وَمَا وَمَنْ وَأَيُّ وَكَمْ وَكَيْفَ وَأَيْنَ وَأَنَّى وَمَتَى وَأَيَّانَ . وجميعها مستعملة القرآن الكريم .

والهمزة هي أم الباب ، وهي لطلب التصديق أو التصور ، و" هل " لطلب التصديق فحسب ، أما باقي الأدوات فهي لطلب التصور فقط .

والمسؤول عنه بالهمزة هو ما يليها ، ومنه قوله تعالى : [قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾] {الأنبياء:٦٢} ، فلشكهم في الفاعل ، كان السؤال عنه ، وهو الذي ولى الهمزة .

وتختص الهمزة بأمور، **منها:** جواز حذفها كقوله تعالى : [وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾] {الشعراء:٢٢} ، أي :أو تلك نعمة ، وقوله تعالى: [قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾] {الأنعام:٧٦} في أحد الاقوال ، أي أهذا ربي؟ .

ومنها: أنها تدخل على الإثبات نحو [أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا] {يونس:٢} [قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ] {الأنعام:١٤٣} وعلى النفي نحو [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾] {الشرح:١} **وتفيد حينئذ معنيين: أحدهما : التذكير والتنبيه كالمثال المذكور**، وكقوله تعالى [أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾] {الفرقان:٤٥}. والآخر التعجب من الأمر العظيم كقوله تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ] {البقرة:٢٤٣} وفي كلا الحالين هي تحذير نحو: [أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾] {المرسلات:١٦} .

ومنها :اختصاصها بالعاطف [الواو والفاء وثم] وتقديمها عليه ، تنبيها على أصالتها في التصدير، نحو قوله : [أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾] {البقرة:١٠٠} وقوله :[أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾] {الأعراف:٩٧} وقوله : [أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾] {يونس:٥١}.

ومنها: أنها تدخل على الشرط بخلاف غيرها،نحو[أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ] {الأنبياء:٣٤} [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ] {آل عمران:١٤٤}.

وإذا دخلت الهمزة على "رأيت"، امتنع إن تكون من رؤية البصر أو القلب ، وصارت بمعنى " أخبرني " كقولك : أرأيتك زيدا ما صنع ؟ في المعنى تعدى بحرف ، وفي اللفظ تعدى بنفسه ، ومنه قوله تعالى: [أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾] {مريم:٧٧} [أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾] {العلق:٩-١٠} [أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾] {الماعون:١}.[1] والمعنى في كل : أخبرني عن .

وَ"هَلْ" أَظْهَرُ فِي الِاخْتِصَاصِ بِالْفِعْلِ مِنَ الْهَمْزَةِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: [فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ] {الأنبياء:٨٠} [فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ] {المائدة:٩١} و[فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ] {هود:١٤}، فذلك لتأكيد الطلب للأوصاف الثلاثة، حَيْثُ أَنَّ الْجُمْلَةَ الِاسْمِيَّةَ أَدَلُّ عَلَى حُصُولِ الْمَطْلُوبِ وَثُبُوتِهِ، وَهُوَ أَدَلُّ عَلَى طَلَبِهِ مِنْ فَهَلْ تَشْكُرُونَ وَهَلْ تُسْلِمُونَ لِإِفَادَةِ

(١) انظر : البرهان للزركشي ٢/٣٤٨، ٣٤٩ و٤/١٧٨، ١٧٩ والإتقان للسيوطي ٢/ ٨٨

التَّجَدُّدِ. لأن إبراز ما سيتجدد في معرض الثابت أدل على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله ، وكذا من قولنا: أفأنتم شاكرون وإن كانت صيغته للثبوت لأن هل أدعى للفعل من الهمزة فتركه معه [أي ترك هل مع الاسم] أدل على كمال العناية بحصوله ولهذا لا يحسن هل زيد منطلق ؟ إلا من البليغ. (١)

وأما "ما" ، الِاسْتِفْهَامِيَّةُ بِمَعْنَى " أي شيء " ولها صدر الكلام كالشرط وَيُسْأَلُ بِهَا عَنْ أَعْيَانِ مَا لَا يَعْقِلُ وَأَجْنَاسِهِ وَصِفَاتِهِ ، وعَنْ أَجْنَاسِ الْعُقَلَاءِ وَأَنْوَاعِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ ، قال تعالى: [قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ] {البقرة:٧٠} و [قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا] {البقرة:٦٩} و: [وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾] {طه:١٧}.(٢)

ويجب حذف ألفها إذا جرت ، وإبقاء الفتحة دليلا عليها فرقا بينها وبين الموصولة نحو [عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾] {النبأ:١} ، [فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾] {النازعات:٤٣} ، [لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾] {الصف:٢} ، [بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾] {النمل:٣٥}. (٣)

وأما " مَنْ" فللسؤال عن الجنس من ذوي العلم تقول من جبريل بمعنى أبشر هو أم ملك أم جني وكذا من إبليس ومن فلان، ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون [فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾] {طه:٤٩} أراد من مالككما ومدبر أمركما ، أملك هو أم جني أم بشر ، منكرا لأن يكون لهما رب سواه لادعائه الربوبية لنفسه ، ذاهبا في سؤاله هذا على معنى

---

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ١٧٨والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ١٠٩ ط/ دار الفكر العربي ، ط/ الأولى ٢٠٠٠م

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/٤٠٢

(٣) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٥٥

ألكما رب سواي؟ فأجاب موسى بقوله: [رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾] {طه: ٥٠} كأنه قال: نعم لنا رب سواك ، وهو الصانع الذي إذا سلكت الطريق الذي بين بإيجاده لما أوجد ، وتقديره إياه على ما قدر ، واتبعت فيه الخريت الماهر ، وهو العقل الهادي عن الضلال ، لزمك الاعتراف بكونه ربا ، وأن لا رب سواه ، وأن العبادة له مني ومنك ومن الخلق أجمع حق لا مدفع له. (١)

وأما " أي " فللسؤال عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما يقول القائل: عندي ثياب فتقول أي الثياب هي؟ فتطلب منه وصفا يميزها عندك عما يشاركها في الثوبية. قال تعالى حكاية عن سليمان [أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِى بِعَرۡشِهَا] {النمل:٣٨} أي الإنسي أم الجني، وقال حكاية عن الكفار: [أَىُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا] {مريم:٧٣} أي أنحن أم أصحاب محمد. (٢)

أما " **كم** " الاستفهامية ، فللسؤال عن العدد ، وتحتاج إلى جواب ، قال تعالى : [قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ] {الكهف:١٩} . وتأتي خبرية للتكثير ،لا تحتاج إلى جواب ، وتقع غالبا في مقام الافتخار والمباهاة نحو [وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا] {النجم:٢٦} [وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا] {الأعراف:٤} .

وأما " **كيف** " فللسؤال عن حال الشيء لا عن ذاته ، وهو لفظ يسأل به عمّا يصحّ أن يقال فيه: شبيه وغير شبيه، كالأبيض والأسود، والصحيح والسّقيم، ولهذا لا يصحّ أن يقال في الله عزّ وجلّ: كيف، وقد يعبّر بِكَيْفَ عن المسئول عنه كالأسود والأبيض، فإنّا نسمّيه كيف، وكلّ ما أخبر الله تعالى بلفظة كَيْفَ عن نفسه فهو استخبار

---

(١) انظر: مفتاح العلوم للسكاكي صـ ٣١١، ٣١٢

(٢) انظر: المرجع السابق صـ ٣١٢

على طريق التنبيه للمخاطب، أو توبيخا نحو: [كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ] {البقرة:٢٨}، [كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ] {آل عمران:٨٦}، [كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ] {التوبة:٧}، [انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ] {الإسراء:٤٨}، [فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ] {العنكبوت:٢٠}، [أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ] {العنكبوت:١٩}. (١)

وأما " **أين** " فللسؤال عن المكان ، نحو : [فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾] {التكوير:٢٦} .

وأما "**أنى** " التي للاستفهام ، فذكروا فيها ثلاثة معان : الأول : بمعنى " كيف " نحو " [قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٢٥٩﴾] {البقرة:٢٥٩} ، و [أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾] {التوبة:٣٠} **الثاني** : بمعنى " من أين " نحو [قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا] {آل عمران:٣٧} أي من أين أتى هذا ؟ أي من أين جاءنا ؟ والفرق بين "أين" و" من أين"، أن "أين" سؤال عن المكان الذى حل فيه الشئ، و" من أين" سؤال عن المكان الذى برز منه الشئ. **الثالث** : بمعنى " متى " نحو : [قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا] {آل عمران:١٦٥} ، ويحتمل أن يكون معناه " من أين " ، والحاصل أنها للسؤال عن الحال والمكان .

وذكرو المعاني الثلاثة في قوله تعالى : [نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ] {البقرة:٢٢٣} حيث أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ الْأَوَّلَ مِنْ طَرِيقٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَخْرَجَ الثَّانِيَ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَاخْتَارَهُ وَأَخْرَجَ الثَّالِثَ عَنِ الضَّحَّاكِ ، وَأَخْرَجَ قَوْلًا رَابِعًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَغَيْرِهِ أَنَّهَا بِمَعْنَى " حَيْثُ شِئْتُمْ ". وهو طبق سبب النزول . (٢)

---

(١) انظر: المفردات للراغب صـ ٧٣٠

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ٢٥٠ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٠٧

والمعنى الثالث في الآية ، وهو أنها بمعنى " متى " ، يرده سبب النزول ، لأن سبب النزول في مكان إتيان النساء ، وهذا لا يناسبه " متى " التي للزمان .

وجعل " أنى " في هذه الآية استفهامية ، فيه نظر ، لأنها – والكلام لصاحب عروس الأفراح – لو كانت هنا استفهامية لاكتفت بما بعدها؛ لأن من شرط الاستفهامية أن يكتفى بما بعدها من فعل كقوله تعالى:[أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ] {آل عمران:٤٧} أو اسم مثل: أنى [أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا] {آل عمران:٣٧}، والذى اختاره أبو حيان[١] ، أنها فى هذه الآية شرطية، وأقيمت فيها الأحوال مقام الظروف المكانية، وجوابها محذوف. وقال قطب الدين الشيرازى[٢]: إن[أَنَّىٰ شِئْتُمْ] فى هذه الآية الكريمة بمعنى: من أى جهة شئتم، وجعلها بهذا المعنى قسما غير كونها بمعنى من أين، وهو فاسد؛ لأن قولنا: من أى جهة شئتم مساو لقولنا: من أين شئتم فتكون بمعنى من أين. [٣]

وأما "**متى** " **وأيان** " فللسؤال عن الزمان ، وَذكر السَّكَّاكِيُّ عن بعضهم : أن " أيان " لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي مَوَاضِعِ التَّفْخِيمِ نَحْوَ: [أَيَّانَ مُرْسَاهَا] {الأعراف:١٨٧} ، [أَيَّانَ

---

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٤٣٠/٢

(٢) هو محمود بن مسعود بن مصلح الفارسى قطب الدين الشيرازي الشافعي، العلامة الكبير ولد بشيراز سنة٦٣٤أربع وثلاثين وستمائة، وأخذ عن أبيه وعمه وغيرهما.مات في رمضان سنة٧١٠ عشر وسبعمائة. انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني٢٩٩/٢ الناشر: دار المعرفة– بيروت

(٣) انظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي (ت: ٧٧٣ هـ) ١/ ٤٥٠ المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي ، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢] {الذاريات:١٢} . وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ النُّحَاةِ أَنَّهَا كَمَتَى تُسْتَعْمَلُ فِي التَّفْخِيمِ وَغَيْرِهِ. (١)

قال الزمخشري : وقيل: اشتقاقه من أيّ فعلان منه، لأن معناه أيّ وقت وأيّ فعل، من أويت إليه، لأن البعض آوٍ إلى الكل متساند إليه، قاله ابن جنى، وأبى أن يكون من «أين» لأنه زمان، «وأين» مكان. (٢)

قال السيوطي : وهو بعيد [يعنى ما ذكره الزمخشري عن ابن جني في اشتقاقها] ، وَقِيلَ: أَصْلُهُ أَيُّ آنٍ. وَقِيلَ: أَيُّ أَوَانٍ حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ مِنْ " أَوَانٍ " وَالْيَاءُ الثَّانِيَةُ مِنْ " أَيٍّ " وَقُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً وَأُدْغِمَتِ السَّاكِنَةُ فِيهَا وَقُرِئَ بِكَسْرِ هَمْزَتِهَا. (٣)

****

---

(١) انظر : مفتاح العلوم للسكاكي ٣١٣/١ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١١٦

(٢) الكشاف للزمخشري ٢/ ١٨٣

(٣) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١١٦

المبحث السادس

المعاني البلاغية للسؤال

السؤال بمعنى الاستفهام هو طلب الفهم ، وهذا يقتضي سبق جهل ، وهذا بالنسبة للحوادث لا غبار عليه ، بله من المسلمات ، لذا يسألون فيعرفون ويتعارفون.

قَالَ ابْنُ مَالِكٍ: وَلِكَوْنِهِ [يعني الاستفهام] طَلَبَ ارْتِسَامِ صُورَةِ مَا فِي الْخَارِجِ فِي الذِّهْنِ لَزِمَ أَلا يَكُونَ حَقِيقَةً إِلَّا إِذَا صَدَرَ مِنْ شَاكٍّ مُصَدِّقٍ بِإِمْكَانِ الْإِعْلَامِ فَإِنَّ غَيْرَ الشَّاكِّ إِذَا اسْتَفْهَمَ يَلْزَمُ مِنْهُ تَحْصِيلُ الْحَاصِلِ وَإِذَا لَمْ يُصَدِّقْ بِإِمْكَانِ الْإِعْلَامِ انْتَفَتْ عَنْهُ فَائِدَةُ الِاسْتِفْهَامِ. (١)

وسؤال الله عز وجل ليس من هذا القبيل ، وحقيقة السؤال بالنسبة للذات العلية مستحيلة ، وخرج سؤاله سبحانه وتعالى عن الحقيقة لمعان أخرى تتعلق بالمخلوقين .

والسؤال من العليم ، ليس بدعا من الكلام ، بل هو من بديعه ومحسناته ، وهو من الشهرة بين الناس قلما يخلو منه كلام ، وهو من أساليب التربية والتعليم التي لا تخفى ، أليس كثيرا ما نقول للمهمل : أتحب أن تكون من الناجحين أم الفاشلين ؟ ونحن نعلم الجواب سلفا ، كما يعلمه المخاطب ، فالفشل لا يقر بحبه أحد. وكثيرا ما تقول الأم لولدها في معرض حثه على الأكل: ألا تريد أن تكون قويا تصارع أصدقائك ، وتسبق نظرائك ؟ والجواب أيضا معلوم سلفا.

وأساليب الاستعمال تجعل طلب الفهم أقل دلالات صيغة الاستفهام خطرا ، وبخاصة في السياق القرآني ، لأن الله سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فهو

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣/ ١٥٠

متره عن طلب الفهم . ومن ثم يكون للاستفهام في القرآن الكريم وظائف أخرى غير ذلك. ويسمي النحاة طلب الفهم " استفهاما على بابه " إذ يعدون طلب الفهم هو الباب أو المدخل إلى الاستفهام في أصل الاستعمال . وحين تقول " الأصل " يدل ذلك على طريقة النحاة في التأصيل والتفريع ، ولا يدل على حرية الإبداع الأسلوبي الذي قد يرى الالتزام بالأصل قيدا على تصريف المعاني . من هنا يعدل الأسلوب عن طلب الإفهام إلى الإنكار حينا (وهو أكثر ما يدل عليه الاستفهام في القرآن الكريم) وإلى التحضيض أو العرض أو التعجب الخ أحيانا . (١)

قال بعض الأئمة: ما جاء على لفظ الاستفهام في القرآن ، فإنما يقع في خطاب الله تعالى على معنى أن المخاطب عنده علم ذلك الإثبات أو النفي حاصل، فيستفهم عنه نفسه تخبره به ، إذ قد وضعه الله عندها، ... ومعنى ذلك أنه قد حصل لكم العلم بذلك تجدونه عندكم إذا استفهمتم أنفسكم عنه ، فإن الرب تعالى لا يستفهم خلقه عن شيء ، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء، فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن وهو في كلام البشر مختلف. (٢)

وكل مادة يمتنع فيها حقيقة الاستفهام ، يستعملون لفظ الاستفهام هناك فيما يناسب المقام ، ويحيلون دركها على ذوق السامعين ، فلا تنحصر المتولدات ، ولا ينحصر أيضا شيء منها في أداة ، فعليك بالتصرف واستعمال الروية. (٣) وقد توسعت العرب

---

(١) انظر : البيان في روائع القرآن للدكتور تمام حسان ٢/ ١٩٣، ١٩٤ ضمن مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٣٢٧

(٣) كتاب الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ،لأبي البقاء الكفومى صـ ١٣٧ دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م. تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري

فأخرجت الاستفهام عن عن حقيقته لمعان، أو أشربته تلك المعاني ، وذكر البلاغيون في هذا معان كثيرة ، وها هي ذي:

الإنكار:

وتسميته استفهاما إنكاريا من أنكر إذا جحد ، ويراد منه النفي ، مع الإنكار على المُثبِتِ كَيْفَ أَثْبَتَ مَا هو ظاهر النفي، وكانَ الواجبُ عليه أن يَنْفِي، أو مع الإنكار على المخاطب قضيَّته، وهي باطلةٌ في تصوُّرِ مُوجِّه الاستفهام. (١) ولذلك تصحبه " إلا " كقوله تعالى: [فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾] {الأحقاف:٣٥} وقوله تعالى [وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾] {سبأ:١٧} ويعطف عليه المنفي كقوله تعالى: [فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ] {الروم:٢٩} أي لا يهدي . (٢)

والاستفهام الإنكاري إما للتوبيخ وإما للتكذيب، أما الذي للتوبيخ فضابطه أن يكون ما بعد الاستفهام واقعا جديرا بأن ينفى، وفاعله ملوم، نحو: [أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾] {الصافات:٩٥}[أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ] {الأنعام:٤٠} [أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ] {الشعراء:١٦٥} [أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا] {النساء:٢٠} .

وأكثر ما يقع التوبيخ في أمر ثابت ووبخ على فعله، كما ذكر، ويقع على ترك فعل كان ينبغي أن يقع كقوله : [أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ] {فاطر:٣٧} [أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا] {النساء:٩٧}.

---

(١) انظر : البلاغة العربية للشيخ عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي ١/ ٢٧١ الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٣٢٨

وأما الذي للتكذيب فضابطه أن يكون ما بعد الاستفهام غير واقع ومدعيه كاذب ، فهو بمعنى " لم يكن " نحو : [أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾] {الإسراء:٤٠} وقوله : [أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾] {الصافات:١٥٣} أو بمعنى "لا يكون " نحو: [أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾] {هود:٢٨} . (١)

والغرض من الاستفهام الإنكاري ، تنبيه السامع حتى يرجعَ إلى نفسه فيخجلَ ويرتدعَ ويَعْيى بالجواب ، إمّا لأنه قدِ ادَّعى القدرةَ على فعلٍ لا يقدرُ عليه . فإذا ثبتَ على دعواهُ قيلَ : " فافعلْ " فيفضحُه ذلك . وإما لأنه هَمَّ بأن يفعلَ ما لا يستصوبُ فِعْلَه ، فإذا رُوجعَ فيه تنبَّه وعرفَ الخطأ . وإمّا لأنه جَوَّزَ وجودَ أمرٍ لا يوجدُ مثلُهُ ، فإذا ثبتَ على تجويزِه وُبِّخَ على تَعَنُّتِهِ وقيلَ له : فأرِنَاهُ في موضعٍ وفي حالٍ . وأقمْ شاهداً على أنّه كان في وقتٍ . (٢)

ويشترط في الإنكار أن يلي المنكر الهمزة ، كقوله تعالى [أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ] {الأنعام:٤٠} [أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا] {الأنعام:١٤} ، وتقديم المفعول في الآيتين له من الحُسن والمزيَّة والفخامة ما علمُ أنه لا يكونُ لو أُخرَ فقيلَ : " قل أأتَّخذُ غيرَ الله ولياً" و" أتدعون غير الله" ، وذلك لأنه حصل بالتقديم معنى قولك أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا؟ وأيرضى عاقلٌ من نفسهِ أن يفعلَ ذلك ؟ وأيكونُ جهلٌ أجهلَ وعمًى أعمى من ذلك؟ ولا يكونُ شيءٌ مِن ذلك إذا قيلَ : أأتَّخذ غيرَ الله ولياً ، وذلك لأنّه حينئذٍ يتناولُ الفعلَ أن يكونَ فقط ولا يزيدُ على ذلك . ومثل هذا قوله تعالى: [أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ]

---

(١) انظر: الإيضاح للقزويني صـ ١١٢، ١١٣ والبرهان للزركشي ٢/ ٣٣١ والإتقان للسيوطي ٢/ ١٥١

(٢) انظر : دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني صـ ١١٩

{القمر:٢٤} وذلك لأنَّهم بَنَوا كفرَهُم على أنَّ مَن كان مثلَهُم بشراً لم يكُن بمثابةِ أن يُتَّبعَ ويُطاع ... وأنهم مأمورون بطاعتهِ كما جاء في الأُخرى : [إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا] {إبراهيم:١٠} . (١)

أيضا من شواهد إيلاء المنكر الهمزة قوله تعالى: [وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ] {الزخرف: ٣١،٣٢ } أي ليسوا هم المتخيرين للنبوة من يصلح لها المتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته . وعد الزمخشري قوله [أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾] {يونس:٩٩} وقوله [أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ] {الزخرف:٤٠} من هذا الضرب على أن المعني أفأنت تقدر على إكراههم على الإيمان أو أفأنت تقدر على هدايتهم على سبيل القسر والإلجاء أي إنما يقدر على ذلك الله لا أنت.(٢)

وتجدر الإشارة إلى **أنَّه لا يقربالمُحال** وبما لا يقولُ أحدٌ : إنه يكونُ ، إلاّ على سبيلِ التمثيل، ومِمَّا هو من هذا الضَرب قولُه تعالى:[أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ] {الزخرف:٤٠}. ليس إسماعُ الصمِّ مما يدَّعيه أحدٌ فيكون ذلك للإنكار. وإنَّما المعنى فيه التَّمثيلُ والتَّشبيهُ وأن يترَّلَ الذي يُظَنُّ بهم أنهم يَسْمعون أو أنه يستطيعُ إسماعَهم مترلةَ مَن يَرى أنه يُسْمِعُ الصُّمَّ ويَهدي العُمْيَ . ثمَّ المعنى في تقديمِ الاسمِ وأنْ لم يُقلْ :" أتُسمِعُ الصمَّ " هو أن يقالَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : أأنتَ خُصوصاً قد أوتيتَ أنْ تُسمعَ الصُّمَّ وأن

(١) انظر : دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني صـ ١٢١، ١٢٢

(٢) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني صـ ١١٣

يُجْعَلَ في ظَنِّه أنَّه يستطيعُ إسماعَهم بمثابةِ مَن يظنُّ أنَّه قد أُوتيَ قدرةً على إسماعِ الصُّمِّ .(١) وهذا أبلغ من إنكار الفعل .

وأشكل علي هذا الشرط – وهو أن يلي المنكر الهمزة – قوله تعالى [أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ] {الإسراء:٤٠} فإن الذي يليها هنا الإصفاء بالبنين ، وليس هو المنكر ، إنما المنكر قولهم:إنه اتخذ من الملائكة إناثا.

وأجيب بأن لفظ الإصفاء يشعر بزعم أن البنات لغيرهم، وإما أن يقال: المراد مجموع الجملتين ينحل منهما كلام واحد، التقدير: جمع بين الإصفاء بالبنين واتخاذ البنات، وتكون الواو فيه للمعية؛ لأن زعمهم لمجموع الجملتين أفحش من اقتصارهم على واحدة منهما، وإن كانت فاحشة.

وأشكل منه قوله [أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ] {البقرة:٤٤} ، ووجه الإشكال أنه لا جائز أن يكون المنكر أمر الناس بالبر، كما تقتضيه قاعدة أن ما يلي الهمزة هو المنكر، ولا أن يكون المنكر نسيان النفس فقط؛ لأنه يصير ذكر أمر الناس بالبر لا مدخل له، ولا مجموع الأمرين؛ لأنه يلزم أن تكون العبادة جزء المنكر، ولا نسيان النفس بشرط الأمر؛ لأن النسيان منكر مطلقا، ولا يكون نسيان النفس حال الأمر أشد منه حال عدم الأمر؛ لأن المعصية لا تزداد شناعتها بانضمامها إلى الطاعة؛ لأن جمهور العلماء على أن الأمر بالبر واجب، وإن كان الإنسان ناسيا لنفسه، وأمره لغيره بالبر كيف يضاعف معصية نسيان النفس؟! ولا يأتي الخير بالشر.

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني صـ ١٢٠، ١٢١

وأجيب بأنه لا يرتاب في أن فعل المعصية مع النهى عنها أفحش؛ لأنها تجعل حال الإنسان كالمتناقض، وتجعل القول كالمخالف للفعل؛ ولذلك كانت المعصية مع العلم أفحش منها مع الجهل. (١)

ومن صور الإنكار، أن يلى الاسم الهمزة ، ويكون المنكر الفعل من أصله ، ثم يخرج اللفظ على كون الإنكار في الفاعل ، ومنه قوله تعالى : [ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ] {يونس:٥٩} الإذنُ راجعٌ إلى قوله:[قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا] {يونس:٥٩}. ومَعْلومٌ أنَّ المعنى على إنكارِ أنْ يكونَ قد كانَ منَ الله تعالى إذْنٌ فيما قالوه من غيرِ أن يكونَ هذا الإذنُ قد كانَ من غيرِ الله فأضافوه إلى الله . إلا أنَّ اللفظَ أُخرجَ مُخرجَه ، إذا كانَ الأمرُ كذلك ، لأن يُجعلوا في صورةٍ من غلطٍ فأضافَ إلى الله تعالى إذناً كان من غير الله فإذا حقّق عليه ارتدع. (٢) لأنه إذا نفى الفعل عمن لا فاعل له غير المنفى عنه انتفى الفعل من أصله.(٣)

ومن صور الإنكار أيضا أن تخرج الكلام في صورة تعيين المقصود بالفعل ، مع أن الأصل هو إنكار الفعل من أصله ، ومنه قوله تعالى: [ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ] {الأنعام:١٤٣} فإن المقصود إنكار أصل التحريم ، وأخرج اللفظ على فرض ثبوت تحريم في أحدِ أشياءَ ثم أريدَ معرفةُ عينِ المحرَّمِ معَ أن المُرادَ إنكارُ التَّحريم من أصلهِ ونفيُ أنْ يكونَ قد حُرم شيءٌ مما ذكروا أنه محرَّم . وذلك أنْ كان الكلامُ وُضعَ على أن يُجعلَ التحريمُ كأنه

---

(١) انظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ١/ ٤٥٦، ٤٥٧

(٢) انظر : دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني صـ ١١٥

(٣) انظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ١/ ٤٥٤

قد كانَ ثم يقالُ لهم : أخبِرونا عن هذا التَّحريم الذي زعمتُم فيمَ هو أفي هذا أم ذاك أم في الثالث لِيتبيَّنَ بطلانُ قولِهم ويظهرَ مكانُ الفِرْيةِ منهم على الله تعالى. (١)

التوبيخ والتقريع :

التقريع: توجيه اللّوم والعتاب الشديد الموجع، وأصْلُ الْقَرْعِ الضَّرْبُ. وجعل بعضهم التوبيخ من قبيل الإنكار على نحو ما سبق ذكره في نوعي الإنكار ، والتوبيخ يكون ما بعد الاستفهام واقع جدير بالنفي ، وَلَا تَدْخُلُ هَمْزَةُ التَّوْبِيخِ إِلَّا عَلَى فِعْلٍ قَبِيحٍ أَوْ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فِعْلٌ قَبِيحٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ] {آل عمران:٨٣} [لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢] {الصف:٢} [أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ] {الكهف:٥٠} . (٢)

التقرير:

والمرادُ منه حَمْلُ المخاطَب على الإقْرار والاعتراف بأمْرٍ قد استقرّ عنده العلْمُ به، أو هو أمْرٌ باستطاعته معرفته حِسِّيّاً أو فكْرِيّاً، موجباً كان أو سالباً.

وهناك خلاف بين العلماء في مجيء " هل " للتقرير . حيث ذهب كثير منهم إلى أن هل تشارك الهمزة في معنى التقرير والتوبيخ . ونقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لا يكون بهل ، إنما تستعمل فيه الهمزة ، ثم نقل عن بعضهم أن هل تأتي تقريرا ، كما في قوله تعالى: [هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥] {الفجر:٥}.

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني صـ ١١٥

(٢) انظر : البرهان للزركشي ٢/ ٣٤٤ ، والإتقان للسيوطي ٣/ ١٥١ والبلاغة العربية لحبنكة ١/ ٢٧٤

وَالْكَلَامُ مَعَ التَّقْرِيرِ مُوجَبٌ وَلِذَلِكَ يُعْطَفُ عَلَيْهِ صَرِيحُ الْمُوجَبِ وَيُعْطَفُ عَلَى صَرِيحِ الْمُوجَبِ فَالْأَوَّلُ: كَقَوْلِهِ: [أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾] {الضحى: ٦،٧} وَقَوْلِهِ: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾] {الشرح: ١،٢} [أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾] {الفيل: ٢}. وَالثَّانِي: كَقَوْلِهِ: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا] {النمل: ٨٤}. (١)

والظاهر أن الغرض من الاستفهام في قوله تعالى: [وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾] {الفجر: ١-٥}. هو انتزاع إقرار ذوي الفكر والعلم والعقل بأن القسم بهذهِ الأشياء قسمٌ عظيم يثبت صدق وعيد الله، وأنّه بالمرصاد للمجرمين المفسدين في الأرض... والجوابُ المستدْعَى لـ[هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾] هو: "نعم" أي: من تفكّر بعقلٍ حصيفٍ في هذهِ الأشياء التي أقْسَمَ الله بها،وَجَدها مؤكّدة حقّاً لمضمون الْمُقْسَمِ عليه، وذلك لأنَّ الأزمان الّتي أقْسَمَ الله بها هي أزمان إهْلاك الله الأُمَمَ السَّابقة، وظاهرٌ أنَّ القَسَمَ بأزمَانٍ خاصة هو قَسَمٌ بالأَحْدَاثِ العظيمة التي جرتْ فيها، وهذه الأحداث أدلّةٌ تجريبيّةٌ ماضية تؤكد صدق الخبر بحدوث أشباهها مستقبلاً عند وجود المقتضيات المماثلات للمتقضيات التي حدثت بسببها الأحداث الماضية، لأنّ سنة الله القائمة على حكمته سنة دائمة، لا تتغيّر ولا تتبدّل. (٢)

ويشترط في استفهام التقرير أن يلي الهمزة المقرر به ، ومنه قوله تعالى [قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾] {الأنبياء: ٦٢} قال الجرجاني : لا شُبْهَةَ في أنّهم لم

(١) انظر: البرهان ٢/ ٣٣١، ٣٣٢ والإتقان للسيوطي ٣/ ١٥١ والبلاغة العربية لحبنكه ١/ ٢٧٥

(٢) انظر: البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكه ١/ ٢٧٧

يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يُقِرَّ لهم بأنَّ كسرَ الأصنام قد كانَ ولكن أن يُقِرَّ بأنَّه منه كان . وقد أشاروا له إلى الفِعل في قولهم:[ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا]. وقال هو عليه السلام في الجواب : [بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴿٦٣﴾] {الأنبياء:٦٣}. ولو كان التقريرُ بالفعلِ لكان الجوابُ : فعلتُ أو لم أَفْعَلْ.(١)

وتعقب بجواز أن يكون الاستفهام على حقيقته ، قال القزويني : وفيه نظر لجواز أن تكون الهمزة فيه على أصلها،إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام.(٢)

وأجيب على هذا بأنه يدل على أن الاستفهام ليس على حقيقته ، ما قبل الآية وهو أنه عليه السلام قد أقسم بقوله:[وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾] {الأنبياء:٥٧} ، ثم لما رأوا كسر الأصنام [قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾] {الأنبياء:٥٩،٦٠}، فالظاهر أنهم قد علموا ذلك من حلفه وذمه الأصنام.(٣)

وحقيقة استفهام التقرير ، أنه استفهام إنكار والإنكار نفي ، وقد دخل على النفي ، ونفي النفي إثبات. فإذا أدخلت على ليس ألف الاستفهام كانت تقريرا ودخلها معنى الإيجاب.

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني صـ ١١٣

(٢) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني صـ ١١٢

(٣) انظر:تحقيق الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٣/ ٧١ هامش رقم(٥) المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي ، الناشر: دار الجيل – بيروت الطبعة: الثالثة

وأمثلته كثيرة كقوله تعالى: [أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ] {الأعراف:١٧٢} أي أنا ربكم ، وقوله: [أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾] {القيامة:٤٠} [أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ] {الزمر:٣٦} [أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾] {الزمر:٣٧} [أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾] {العنكبوت:٦٨}.

وقد يجتمع الاستفهام الواحد للإنكار والتقرير كقوله: [فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ] {الأنعام:٨١} أي ليس الكفار آمنين والذين آمنوا أحق بالأمن ، ولما كان أكثر مواقع التقرير دون الإنكار ، فقال [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ] الآية {الأنعام:٨٢}.

وقد يحتملهما،كقوله: [أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا] {الحجرات:١٢} . ويحتمل أنه استفهام تقرير ، وأنه طلب منهم أن يقروا بما عندهم تقرير ذلك ، ولهذا قال مجاهد: التقدير "لا " فافهم لما استفهموا استفهام تقرير بما لا جواب له إلا أن يقولوا "لا" جعلوا كأنهم قالوا ...

ويحتمل أن يكون استفهام إنكار بمعنى التوبيخ على محبتهم لاكل لحم أخيهم فيكون " ميتة " ، والمراد محبتهم له غيبته على سبيل المجاز ، و" [فَكَرِهْتُمُوهُ] {الحجرات:١٢}" بمعنى الأمر أي أكرهوه . ويحتمل أن يكون استفهام إنكار بمعنى التكذيب ، أنهم لما كانت حالهم حال من يدعي محبة أكل لحم أخيه نسب ذلك إليهم ، وكذبوا فيه ، فيكون [فَكَرِهْتُمُوهُ] . (١)

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٣٣/٢، ٣٣٤ و ٣٤٤،٣٤٥

التعجب أو التعجيب :

ويُسَمَّى اسْتِفْهَاماً تَعْجُبِيّاً حين يَكونُ صَادِراً مِنْ متعجِّب فعلاً، ويُسَمَّى اسْتِفْهَاماً تَعْجِيبِيّاً حينَ يكونُ الغرض من إيراده إثارَةَ الْعَجَب عنْد مَنْ يخاطَبُ بهِ أو يتلقَّاهُ، منه ما يكون صادراً عن الله عزّ وجلّ، إذْ ليْسَ صفاتِهِ سبحانه أن يتعجَّب تَعَجُّبَ استِغْرابٍ واستبعاد، نظراً إلى سابقِ علمه تعالى بكلّ ما يحدُثُ منْ عباده قبْلَ حدوثه، وعِلْمِهِ بخلقِه وَصفاتِهِمْ وخصائصهم النّفسية والسلوكيّة. وما ورد في بعض الأحاديث النبويّة منْ نسبة العجب إلَى الله عزّ وجلّ فهو بمعنى الاستحسان المقتضي للرّضى والمثوبة. (١)

ومن أمثلته ، قوله تعالى : [كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾] {البقرة:٢٨} أي كيف تكفرون والحال أنكم عالمون بهذه القصة ، وفيه توبيخ وتعجيب ، أما التوبيخ فلأن الكفر مع هذه الحال ، ينبيء عن الانهماك في الغفلة أو الجهل ، وأما التعجيب فلأن هذه الحال ، تأبى أن لا يكون للعاقل علم بالصانع، وعلمه به يأبى أن يكفر ، وصدور الفعل مع الصارف القوي مظنة تعجب. (٢)

ونظيره قوله : [أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾] {البقرة:٤٤} هذا تعجيب مع التقريع والتأنيب لعلماء بني إسرائيل لكونهم يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه. وقوله : [وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ

---

(١) انظر: البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكه ١/ ٢٧٨

(٢) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني صـ ١١٥

كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾] {النمل:٢٠}. حيث تعجب سليمان عليه السلام من عدم رؤيته للهدهد ، وليس من عادته أن يتخلف . (١)

العتاب:

وهو أخفّ أنواع إظْهارِ عدم الارتياح لسلوكٍ ما، فعلاً كان أو تركاً، وقد يُسْتَخْدَمُ للدلالة عليه أسلوبُ الاستفهام للتخفيف من توجيهه، والتَّلَطُّفِ بنفس الموجّه له. (٢)

ومنه قوله تعالى: [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾] {الحديد:١٦} قَالَ ابْنَ مَسْعُودٍ: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلاَمِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الآيَةِ [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ] إِلاَّ أَرْبَعُ سِنِينَ. (٣)

وما ألطف ما عاتب الله به خير خلقه بقوله تعالى:[عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ] {التوبة:٤٣}.(٤) أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأودي قال: اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى ، فأنزل الله : [عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ] الآية. (٥)

---

(١) انظر: الاتقان للسيوطي ٣/ ١٥٢

(٢) انظر: البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكه ١/ ٢٨٠

(٣) مسلم في التفسير باب(٢) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ] حديث رقم (٧٧٣٥)

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/٣٣٦

(٥) انظر: جامع البيان لابن جرير ١٤/ ٢٧٣ طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق / أحمد محمد شاكر٢٠٠٠م

التذكير:

وفيه نوع اختصار ، حيث يستخدم الاستفهام للتذكير بقولٍ أو فِعْلٍ أو حادثةٍ جرَتْ، وقد يُقْتَصَرُ فِيهِ على بعض ما يُسْتَدْعَى بالاستفهامِ تَذكُّره، فتحصل به فائدةُ الإيجاز في القول.

ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ حكاية عن يوسف عليه السلام وإخوته: [قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾] {يوسف:٨٩}. فيوسف – عليه السلام– يُذَكِّرُ إخوته بما سَبَقَ أَنْ فَعَلُوا بِهِ وبأخيهِ "بنيامين" بأسلوب الاستفهام، وتُفْهَمُ مع هذا التذكير معانٍ أخرى كالعتاب أو التلويم.

وقول اللَّهِ عزّ وجلَّ خطاباً للملائكة بعد أن أثبت لهم تفوّق آدم عليهم بمعرفةِ الأسماء الَّتي علّمهُ إيّاها، وبعد أن أعلنوا جهلهم بها: [قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾] {البقرة:٣٣}. (١)

الافتخار:

ومثلوا له بقول الله تعالى : [وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾] {الزخرف:٥١} قالوا: إنّ الاستفهام في قوله: [أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ] خرج عن معناهُ إلى معنى الافتخار بما يملك في مصر.

---

(١) انظر: البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكه ١/ ٢٨٢

قال الشيخ عبد الرحمن حَبَنَّكَة : إنّ فرعون خاف على قومه أن يتأثّروا بدعوة موسى ويتّبعوه، بعد أن جاءهم بآياتٍ ذواتِ عدد، وبعد أن دعا رَبّه فكَشَفَ عنهم ما أرسَلَ عليهم من رجز، فأراد فرعون أن يُقْنع قومه بتفوّقِهِ علَى مُوسَى بأنّ لَهُ مُلْكَ مصر، وبأنّ موسى لا مُلْكَ له ولا سلطان، وبأنّه إذا أراد أن يتكلّم فإنّه لا يكاد يُبين عن مراده، وعلى هذا فالاستفهام في كلامه مستعمل لانْتزَاع إقرار قومِهِ في جماهيريَّة غوغائيّة بتفوّقه على مُوسَى، وَلِلَفْتِ أنظارهم إلى عناصر التفوّق التي يريد أن يخدعهم بها عن الحقيقة، ولَيْسَ لمطلق الافتخار، وقد يكون فيه رائحة افْتِخَار. (١)

التعظيم والتفخيم :

نحو قوله [مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ] {البقرة:٢٥٥} ، وقوله : [وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾] {الكهف:٤٩}

فالمراد من الاستفهام في الآية ، تعظيم وتفخيم شأن هذا الكتاب الذي حوى كل ما عملوا ، وليس استفهاما يطلب به الجواب.

التهويل والتخويف:

إذا كان المعظَّم شيئاً مُخِيفاً مَهُولاً، كان تعظيمه بالاستفهام فيه مَعْنَى التَّهْوِيل والتخويف. نحو قول الله عزّ وجلّ يخوّف من يوم القيامة وأهْوَالها: [ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾] {الحاقة: ١-٣} فالاستفهام هنا للتخويف والتهويل. ونظيره قول الله

(١) انظر: البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكه ١/ ٢٨٢

عزّ وجلّ : [ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣] {القارعة: ١-٣}. وعكسه :

التسهيل والتخفيف :

حيث يُعبّر المتكلّم عمّا يراه أمراً سَهْلاً هيّناً خفيفاً بأسلوب الاستفهام، وتدلُّ قرينة الحال أو قرينة المقال على ما أراد التعبير عنه. ومنه قول الله عزّ وجلّ [وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا] {النساء: ٣٩}. أي: إنّ الإيمان أمْرٌ سَهْلٌ يَسيرٌ هيِّنٌ لاَ ثِقَلَ فِيه عَلَى النفوس.

وقوله اللَّهِ عزّ وجلّ: [قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ] {التوبة: ٥٢} أي: هَلْ تَنْتَظِرُون أَنْ يَنَالَنا إلاَّ إحْدَى الْحُسْنَيَيْن: الشَّهَادَة وهْي سَهْلَةٌ عَلَيْنا، أو النَّصْر وهو حبيبٌ إلينا. (١)

التهديد والوعيد:

أو التحذير كقوله تعالى: [أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦] {المرسلات: ١٦} ، وقوله تعالى : [هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠] {البقرة: ٢١٠} وقوله: [فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ] {يونس: ١٠٢} .

---

(١) انظر: البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكه ١/ ٢٨٤، ٢٨٥

التكثير:

والأداة المستعملة في هذا غالباً كلمة "كم" وتخرج حينئذٍ عن الاستفهام وتسمى "كم" الخبرية التي يُعبَّرُ بها عَنِ الكثرة. نحو: [وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾] {الأعراف:٤} [وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾] {النجم:٢٦} [سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾] {البقرة:٢١١} [أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾] {الشعراء:٧}

التسوية:

وَهو الاستفهام الدَّاخِل عَلَى جُمْلَةٍ يَصِحُّ حُلُولُ الْمَصْدَرِ مَحَلَّهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾] {يس:١٠} أَيْ: سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ الْإِنْذَارُ وَعَدَمُهُ، مُجَرَّدَةً لِلتَّسْوِيَةِ، مُضْمَحِلًّا عَنْهَا مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ. وَمَعْنَى الِاسْتِوَاءِ فِيهِ اسْتِوَاؤُهُمَا فِي عِلْمِ الْمُسْتَفْهَمِ، لِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ كَائِنٌ، إِمَّا الْإِنْذَارُ وَإِمَّا عَدَمُهُ، وَلَكِنْ لَا يُعَيِّنُهُ، وَكِلَاهُمَا مَعْلُومٌ بِعِلْمٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: [سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾] {إبراهيم:٢١} وَقَوْلُهُ تَعَالَى: [سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٦﴾] {المنافقون:٦} [قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾] {الشعراء:١٣٦}.

وَتَارَةً تَكُونُ التَّسْوِيَةُ مُصَرَّحًا بِهَا كَمَا ذكر ، وَتَارَةً لَا تَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾] {الأنبياء:١٠٩}(١)

الأمر:

نحو: [ءَأَسْلَمْتُمْ] {آل عمران:٢٠} أي أسلموا ، [فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾] {المائدة:٩١} ، أي انتهوا، [أَتَصْبِرُونَ] {الفرقان:٢٠} أي اصبروا .

التَّنْبِيهُ :

وَهُوَ مِنْ أَقْسَامِ الْأَمْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ] {البقرة:٢٥٨} [أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ] {الفرقان:٤٥} [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ] {البقرة:٢٤٣} [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾] {الفيل:١} وَالْمَعْنَى فِي كُلِّ ذَلِكَ: انْظُرْ بِفِكْرِكَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَتَنَبَّهْ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً] {الحج:٦٣} ذكره صاحب الكشاف عن سيبويه ، وَلِذَلِكَ رَفَعَ الْفِعْلَ وَلَمْ يَنْصِبْهُ . وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ قوله تعالى : [فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾] {التكوير:٢٦} لِلتَّنْبِيهِ عَلَى الضَّلَالِ . وقوله تعالى : [وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ] .

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٣٦/٢، ٣٣٧

النَّهْيُ:

كَقَوْلِهِ تعالى: [مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾] {الانفطار:٦} أَيْ: لَا يَغُرُّكَ ، وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: [أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾] {التوبة:١٣} بدليل قوله: [فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴿٤٤﴾] {المائدة:٤٤}. (١)

الدعاء:

وهو كالنهي إلا أنه من الأدنى إلى الأعلى، نحو [أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ] {الأعراف:١٥٥} أي لا تهلكنا.

الاسترشاد: نحو: [أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا] {البقرة:٣٠}

التَّمَنِّي:

كَقَوْلِهِ: [هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾] {الأعراف:٥٣}. أي: نَتَمَنَّى أنْ يكون لنا شفعاء، أو نُرَدَّ إلى حياة الابتلاء لنعمل غير الذي كنّا نعمل، لكنّ أمانيَّهُمْ ضائعة ومطالبهم بها مرفوضة.

---

(١) انظر: البرهان للزركشي ٢/ ٣٤٠، ٣٣٩ والإتقان للسيوطي ٣/ ١٥٢

الاسْتِبْطَاءُ:

كَقَوْلِهِ: [وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾] {يونس:٤٨} **بدليل:** [وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾] {الحج:٤٧}.

وقوله: [أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾] {البقرة:٢١٤}

قَالَ الْجُرْجَانِيُّ: فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ أَيْ: "حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ: أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا: مَتَى نَصْرُ اللَّهِ" وَهُوَ حَسَنٌ . (١)

الترغيب والتشويق :

نحو [مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا] ، ومنه قوله تعالى : [هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾] {الغاشية:١} وهو استفهامٌ أُريدَ به التعجيبُ مِمَّا في حيزه والتشويقُ إلى استماعِه والإشعارُ بأنَّه من الأحاديثِ البديعةِ التي حقُّها أنْ يتناقلَها الرواةُ ويتنافسُ عليها الوعاةُ مِنْ كلِّ حاضرٍ وبادٍ . (٢)

---

(١) انظر: البرهان للزركشي ٢/ ٣٤٢، ٣٤٣

(٢) قيلَ : هِلْ بمَعْنى "قَدْ" كمَا في قولِه تعالَى : [هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ] {الإنسان:١} ، وليس بشيء انظر: تفسير أبي السعود ٩/ ١٤٨

وقوله تعالى [هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾] {النازعات:١٥} إنِ اعتُبرَ هذا أولَ ما أتاهُ عليه الصلاةُ والسلامُ من حديثِه – عليه السلامُ – فهو ترغيبٌ له عليه الصلاةُ والسلامُ في استماعِ حديثِه كأنَّه قيلَ هل أتاكَ حديثُه أنَا أُخبرَك بهِ، وإنِ اعتُبرَ إتيانُه قبل هذا وهُو المتبادرُ من الإيجازِ في الاقتصاصِ ، حملهُ عليه الصلاة والسلام ، على أنْ يقرَّ بأمرٍ يعرفُه قبلَ ذلكَ كأنَّه قيلَ أليس قد أتاكَ حديثُه . (١) فهل بمعنى " قد" .

الْعَرْضُ :

ومنه قوله تعالى : [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾] {الصف:١٠} ، والاستفهام في الآية ، مستعمل في العَرض مجازاً لأن العارض قد يسأل المعروضَ عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض كما يقال : هل لك في كذا؟ أو هل لك إلى كذا؟

والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض ، وهو دلالته إياهم على تجارة نافعة . (٢)

ومنه أيضا قَوْله تَعَالَى: [أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾] {النور:٢٢} وقول الله عزَّ وجلَّ بشأنِ دعوة إبراهيم عليه السلام ضيوفه ليأكلوا ما أعدَّ لهم من طعامٍ، وكان عِجْلاً مَشْوِيّاً :[فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾] {الذاريات:٢٦، ٢٧} .

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٩/ ٩٩

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٨/ ١٩٣

التَّحْضِيضُ:

يريد المتكلم حَضَّ مَنْ يخاطبه على فعل أمرٍ أو ترك أمْرٍ، وقد يجد استعمال أسلوب الاستفهام أوقع في نفسه، وأكثرَ تأثيراً، إذا كانت القرينة القولية أو الحالية تشعر بالتلويم على عدم الاستجابة.نحو: [أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴿١٣﴾] {التوبة:١٣}.

التجاهل:

قد يتجاهل العارف بالأمر أو بالشخص أو بصفاته لأغراضٍ بلاغيّة، منها استزادة المعرفة، ومنها انتزاع الاعتراف، ومنها تحقيره والتقليل من شأنه حتّى كأنه غير معروف، ومنها الإثارة لإفاضة البيان حوله من بعض حاضري المجلس للتعريف به مدحاً أو ذمّاً، إلى غير ذلك من أغراضٍ بلاغية، ويستعمل في التجاهل أسلوب الاستفهام. وذكروا مثالا له قوله تعالى : [أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾] {ص:٨}. (١)

التحقير والاستهانة والاستهزاء:

قد يستعمل الاستفهام أسلوباً من أساليب تحقير المستَفْهَم عنه والاستهانة به، لأنّ الاستفهام يشعر بأنّ المستَفْهِمَ غَيرُ مهتَمٍّ بما يَسْتَفْهِمُ عنه، ولا مكترثٍ له لحقارته في نفسه، واستهانته به، ثم صار الاستفهام يدلُّ على التحقير والاستهانة بمساعدة قرائن الحال أو المقال.

---

(١) انظر: الإتقان للسيوطي ٣/ ١٥٣ والبلاغة العربية لحبنكة ١/٢٩٦،٢٩٥

ومنه قوله تعالى: [قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا] {هود:٨٧} ، [وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾] {الأنبياء:٣٦} ، وقوله : [وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾] {الفرقان:٤١}.

الاكتفاء:

نحو : [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾] {العنكبوت:٦٨} [وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾] {الزمر:٦٠}.

الاسْتِبْعَادُ:

كَقَوْلِهِ: [أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾] {الدخان:١٣} أَيْ: يُسْتَبْعَدُ ذَلِكَ مِنْهُمْ بَعْدَ أَنْ جَاءَهُمُ الرسول ثم تولوا.

الْإِينَاسُ:

نَحْوُ: [وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾] {طه:١٧} . وقال ابن فارس: المراد به الْإِفْهَامُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ أَنَّ لَهَا أَمْرًا قَدْ خَفِيَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَعْلَمَ مِنْ حَالِهَا مَا لَمْ يَعْلَمْ . وَقِيلَ: هُوَ لِلتَّقْرِيرِ فَيَعْرِفُ مَا فِي يَدِهِ حَتَّى لَا يَنْفِرَ إِذَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً .

التأكيد:

قد يأتي الاستفهام تأكيد لما سبق من معنى أداة الاستفهام قبله ، كقوله [أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾] {الزمر:١٩} قال الموفق عبد اللطيف البغدادي: أي من حق عليه كلمة العذاب ، فإنك لا تنقذه ، فمن للشرط ، والفاء جواب الشرط ، والهمزة في أفأنت دخلت معادة مؤكدة لطول الكلام ، وهذا نوع من أنواعها .

وقال الزمخشري: الهمزة الثانية هي الأولى ، كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد . (١)

الإخبار:

قد يستعمل الاستفهام أسلوباً من أسَالِيب الإخبار، وهو يدخل في طريقة الإعلام غير المباشر. نحو [أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾] {النور:٥٠} [هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾] {الإنسان:١}. (٢)

وهذه المعاني السابقة يلاحظ بين بعضها تقاربا أو ترادفا ، وقد تختلف وجهات نظر العلماء في تعيين المعنى المراد بالاستفهام ، وبعضهم أسهب في ذكر هذه المعاني وبعضهم أوجز ، والأمر هين يسير ، لأن الأمر يعتمد على ذوق كل فرد ، ووجهة نظره للنص وتحليله .

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٢١

(٢) انظر: الإيضاح للقزويني صـ ١١٢ – ١١٥ والبرهان للزركشي ٢/٣٢٨- ٣٤٤ والإتقان للسيوطي ٣/١٥٠- ١٥٣ والبلاغة العربية لحبنكة ١/٢٧٤ – ٣٠٢

وذكروا في هذا المقام سؤالا فحواه : **هل الاستفهام باق مع المعاني السابقة ، أم تجردت عنه بالكلية ؟** محل نظر، والذى يظهر الأول .

ويساعده ما ذكره التنوخي من أن" لعل" تكون للاستفهام مع بقاء معنى الترجي. وقال التنوخي أيضا في نحو: [ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢] {الحاقة:١-٢} ليس استفهاما محضا، ومما يرجح الأول أن الاستبطاء في قولك: كم أدعوك؟ معناه أن الدعاء قد وصل إلى حد لا أعلم عدده، فأنا أطلب أن أفهم عدده، والعادة تقضى بأن الشخص إنما يستفهم عن عدد ما صدر منه إذا كثر فلم يعلمه، وفى طلب فهم عدده ما يشعر بالاستبطاء، وأما التعجب فالاستفهام معه مستمر؛ لأن من تعجب من شيء فهو بلسان الحال سائل عن سببه، وكأنه يقول: أي شيء عرض لي في حال عدم رؤية الهدهد؟ وأصله أي شيء عرض له؟ لكنه قلبه إلى نفسه مبالغة في الصفة،...وأما التقرير فاعلم أنهم لم يفصحوا عن مرادهم به، فهل نقول: إن المراد به الحكم بثبوته كقولك: قررت هذا الأمر، أي: أثبته، فيكون حينئذ خبرا، فإن المذكور عقب الأداة واقع نفيا كان أم إثباتا. فالتقرير فى [أَلَمْ نَشْرَحْ] {الشرح:١} للفعل وهو الشرح، أو المراد أنه طلب إقرار المخاطب به، مع كون السائل يعلم، فهو استفهام يقرر المخاطب، أي: يطلب منه أن يكون مقرًا به. وفى كلام أهل الفن ما يقتضى كلا من الاحتمالين... فلا بدع في صدور الاستفهام ممن يعلم المستفهم عنه، وإذا سلمت ذلك انزاحت عنك شكوك كثيرة، وظهر لك أن الاستفهامات الواردة في القرآن لا مانع أن يكون طلب الفهم فيها مصروفا إلى غير المستفهم عنه، فلا حاجة إلى تعسفات كثير من المفسرين، وبهذا انجلى لك أن الاستفهام التقريري بهذا المعنى حقيقة، وأن قوله تعالى: [ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى] {المائدة:١١٦} حقيقة، فإنه طلب به أن يقر بذلك في ذلك المشهد العظيم تكذيبا للنصارى وتحصيلا لفهمهم أنه لم يقل ذلك،... وبذا اتضح لك إمكان حمل الاستفهامات الواردة في القرآن على حقيقتها مع تنزيه البارئ عز وجل عن أن يطلب الفهم لنفسه تبارك وتعالى.

وأما استفهام الإنكار فقد يكون الاستفهام به لطلب فهم السامعين لذلك الشيء المنكر فينكرونه. وأما التهكم فقد يكون فيه الاستفهام أيضا مصروفا إلى المخاطب. وأما التحقير فقد يكون استفهاما بمعنى أن ذلك وصل في الحقارة إلى أن لا يعلم حقيقته فيستفهم عنه. وأما الاستبعاد فيمكن فيه ما سبق في التنبيه على الضلال. والأمر يجوز أن يكون مفهوما مع بقاء قصد إفهام الناس حالهم، وطلب نطقهم بذلك.

والعرض والتحضيض والزجر والمبالغة ، لا تعد في اجتماع الاستفهام مع كل منها، فحاصله تكمل المحافظة على معنى الاستفهام، مع معنى آخر بمعاونة القرائن اللفظية أو الحالية. (١)

وعلى كل فقرائن السياق عادة هي التي تدل على فهم المعنى المراد من الاستفهام وتعيينه ، وهذا حسب درك السامع ، ومقدار تذوقه للنص .

****

(١) انظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ١/ ٤٥٩- ٤٦١ بتصرف يسير

المبحث السابع

أحوال السؤال والجواب من حيث المطابقة وعدمها

الْأَصْلُ فِي الْجَوَابِ أَنْ يَكُونَ مُطَابِقًا لِلسُّؤَالِ، أو كما يقال في الدارج من القول: الجواب على قدر السؤال. فلا يكون الجواب ناقصا عن المطلوب، أو فيه زيادة لا يحتاج إليها السائل. ولكن هذا الأصل يخرج عليه أحيانا، حيث يعدل عن ذلك، بالجواب عن أمر آخر، ينبغي أن يكون السؤال عنه، أو ينقص عن المطلوب في السؤال، أو يزاد عليه.

العدول فِي الْجَوَابِ عَمَّا يَقْتَضِيهِ السُّؤَالُ

والعدول فِي الْجَوَابِ عَمَّا يَقْتَضِيهِ السُّؤَالُ ، إنما يكون للتَنْبِيه عَلَى أَنَّهُ كَانَ مِنْ حَقِّ السُّؤَالِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ ، وَيُسَمِّيهِ السَّكَّاكِيُّ: الْأُسْلُوبَ الْحَكِيمَ. (١)

وهذا الأسلوب يبدو في ظاهره عدم المطابقة بين السؤال والجواب ، وهذا ليس بصحيح ، لأن مقتضى الحال قد يتطلب هذا العدول ، فيجيي الجواب مطابقا لمقتضى الحال ، ومراعاة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، هي البلاغة كما عرفوها .

ومما ذكروه مثالا لهذا العدول: قَوْلُهُ تَعَالَى:[يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ]{البقرة:١٨٩} سَأَلُوا عَنِ الْهِلَالِ: لِمَ يَبْدُو دَقِيقًا مِثْلَ الْخَيْطِ ثُمَّ يَتَزَايَدُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَمْتَلِئَ ثُمَّ لَا يَزَالُ يَنْقُصُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا بَدَأَ؟ فَأُجِيبُوا بِبَيَانِ حِكْمَةِ ذَلِكَ ،

---

(١) قال السكاكي: يترل سؤال السائل مترلة سؤال غير سؤاله ، لتوخي التنبيه له بألطف وجه على تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه أو أهم له إذا تأمل، وأن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور وأبرزه في معرض المسحور .أ.هـ مفتاح العلوم للسكاكي صـ ٣٢٧

تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْأَهَمَّ السُّؤَالُ عَنْ ذَلِكَ لَا مَا سَأَلُوا عَنْهُ، كَذَا قَالَ السَّكَّاكِيُّ: وَمُتَابِعُوهُ وَاسْتَرْسَلَ التَّفْتَازَانِيُّ فِي الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ: لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِمَّنْ يَطَّلِعُ عَلَى دَقَائِقِ الْهَيْئَةِ بِسُهُولَةٍ. (١)

وقد تعقب هذا السيوطي في إتقانه ، والمثال عنده من قبيل ما تطابق فيه السؤال والجواب ، حيث لا دليل على ما ذكروه ، بل ما ورد في سبب نزول الآية يدل على مطابقة الجواب للسؤال ، وإليك بعض كلامه نصا رحمه الله وطيب ثراه :

لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيْنَ لَهُمْ أَنَّ السُّؤَالَ وَقَعَ عَنْ غَيْرِ مَا حَصَلَ الْجَوَابُ بِهِ! وَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا وَقَعَ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوهَا فَإِنَّ نَظْمَ الْآيَةِ مُحْتَمِلٌ لِذَلِكَ كَمَا أَنَّهُ مُحْتَمِلٌ لِمَا قَالُوهُ. وَالْجَوَابُ بِبَيَانِ الْحِكْمَةِ دَلِيلٌ عَلَى تَرْجِيحِ الِاحْتِمَالِ الَّذِي قُلْنَاهُ ، وَقَرِينَةٌ تُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ. إِذِ الْأَصْلُ فِي الْجَوَابِ الْمُطَابَقَةُ لِلسُّؤَالِ ، وَالْخُرُوجُ عَنِ الْأَصْلِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ ، وَلَمْ يَرِدْ بِإِسْنَادٍ لَا صَحِيحٍ وَلَا غَيْرِهِ أَنَّ السُّؤَالَ وَقَعَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ بَلْ وَرَدَ مَا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ: فَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ خُلِقَتِ الْأَهِلَّةُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾. (٢) فَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّهُمْ سَأَلُوا عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ لَا عَنْ كَيْفِيَّتِهِ مِنْ جِهَةِ الْهَيْئَةِ . وَلَا يَظُنُّ ذُو دِينٍ بِالصَّحَابَةِ، الَّذِينَ هُمْ أَدَقُّ فَهْمًا وَأَغْزَرُ عِلْمًا أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِمَّنْ يَطَّلِعُ عَلَى دَقَائِقِ الْهَيْئَةِ بِسُهُولَةٍ . (٣)

---

(١) انظر : مفتاح العلوم للسكاكي صـ ٣٢٧ ومختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني صـ ٨٣ الناشر: دار الفكر الطبعة: الأولى ١٤١١ هـ.

(٢) الأثر عن قتادة والربيع بن أنس وابن جريج ، ولا أثر لأبي العالية في الآية . انظر: جامع البيان لابن جرير ٢/ ٥٥٤ وأسباب النزول للواحدي النيسابوري صـ ٥٥

(٣) الإتقان للسيوطي ٢/ ٢٠٠

يضاف إلى ما ذكره السيوطي ، أن ما ذكروه من أن سبب نزول الآية ، أنهم سَأَلُوا عَنِ الْهِلَالِ: لِمَ يَبْدُو دَقِيقًا مِثْلَ الْخَيْطِ ثُمَّ يَتَزَايَدُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَمْتَلِئَ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَنْقُصُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا بَدَأَ؟ هذا السبب ذكره ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس ، وذكره الواحدي عن الكلبي مرسلا .[1] والكلبي وهو محمد بن السائب حاله أشهر من أن يخفى ، فهو وضاع كذاب . والسائلون في الرواية هما معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة ، وهما رجلان من الأنصار .

وعلى فرض أن السؤال كان على نحو ما ذكروه ، فعدم المطابقة لا يسلم ، لأن الجواب بكينونة الهلال ميقاتا لأزمنة الناس ، مرتب على ظهوره وخفاءه وزيادته ونقصانه على نحو ما هو معروف فلكليا ، وهو ما كان عنه السؤال على نحو ما ذكروا . فادعاؤهم عدم المطابقة لا يسلم .

قال أبو السعود: كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام ، عن الحِكمة في اختلاف حالِ القمرِ وتبدُّل أمرِه ، فأمره الله العزيزُ الحكيمُ أن يُجيبهم بأن الحِكمةَ الظاهرةَ في ذلك ، أن تكون معالِمَ للناس في عبادتهم، لا سيما الحجُّ، فإن الوقتَ مراعىً فيه أداءً وقضاءً ، وكذا في معاملاتهم على حسب ما يتّفقون عليه.[2] فالجواب عند أبي السعود طابق الجواب، ولا عدول فيه، حيث أجيبوا عما سألوا عنه.

ومما عدل عنه في الجواب أيضا قَوْله تَعَالَى: [يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾] {البقرة:٢١٥}

---

(١) انظر : فتح القدي للشوكاني ١/ ٣٤٤ وأسباب النزول للواحدي النيسابوري صـ ٥٥

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٢٠٣

منطوق السؤال أنهم سَأَلُوا عن بيان ما ينفقون ، فأجيبوا ببيان المصرف ، للتنبيه على أن السؤال ينبغي أن يكون عما أجيبوا عنه ، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ [قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ] تضمن بَيَانَ مَا يُنْفِقُونَهُ ، وَهُوَ خَيْرٌ ثُمَّ زِيدُوا عَلَى الْجَوَابِ بَيَانَ الْمَصْرِفِ.

وقد ورد في سبب النزول ، ما يدل على أن السؤال كان عن الأمرين ، أعني ما ينفقونه ومصرفه . أخرج ابْن جرير وَابْن الْمُنْذر عَن ابْن جريج قَالَ: سَأَلَ الْمُؤْمِنُونَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَيْن يضعون أَمْوَالهم فَنزلت [يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ] {البقرة:٢١٥} الْآيَة. فَذَلِك النَّفَقَة فِي التطوّع وَالزَّكَاة سوى ذَلِك كُله.

وَأخرج ابْن الْمُنْذر عَن ابْن حبَان قَالَ: إِن عَمْرو بن الجموح سَأَلَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: مَاذَا ننفق من أَمْوَالنَا وَأَيْنَ نضعها فَنزلت [يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ] الْآيَة . فَهَذَا مَوَاضِع نَفَقَة أَمْوَالكُم. (١)

فَعَلَى هَذَا لَيْسَتِ الْآيَةُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ [من العدول] ، لِأَنَّ السَّائِلَ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِغَيْرِ مَا يَطْلُبُ بَلْ أُجِيبَ بِبَعْضِ مَا سَأَلَ عَنْهُ .

وَقَالَ ابْنُ الْقُشَيْرِيِّ(٢): السُّؤَالُ الْأَوَّلُ كَانَ سُؤَالًا عَنِ النَّفَقَةِ إِلَى مَنْ تُصْرَفُ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْجَوَابُ، وَالْجَوَابُ يَخْرُجُ عَلَى وَفْقِ السُّؤَالِ ، وَأَمَّا هَذَا السُّؤَالُ الثَّانِي فَعَنْ قَدْرِ الْإِنْفَاقِ وَدَلَّ عَلَيْهِ الْجَوَابُ أَيْضًا. (١)

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير٤/٢٩٢ والدر المنثور للسيوطي١/٥٨٥ وأسباب النزول للسيوطي ص٣٠

(٢) **هو** الشيخ الامام، المفسر العلامة، أبو نصر عبد الرحيم بن الإمام شيخ الصوفية أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، النحوي المتكلم، برع في العربية والنظم والنثر، والتأويل، وكان أحد الاذكياء، وساد وعظم قدره، واشتهر ذكره. مات سنة أربع عشرة وخمس مائة في عشر الثمانين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي١٩/٤٢٤-٤٢٦ مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة التاسعة١٤١٣هـ-١٩٩٣م

والْمِثَالُ الصَّحِيحُ لِهَذَا الْقِسْمِ جَوَابُ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ في هذه الآيات: [قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾] {الشعراء:٢٥-٢٨} .

لما كان السؤال عن الحقيقة مما لا يليق بجنابه جل وعلا. قالَ عليه السلام عادلا عن جوابه إلى ذكر صفاته عز وجل، على نهج الأسلوب الحكيم، إشارة إلى تعذر بيان الحقيقة ، [رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾]، فلما لم يتطابق السؤال والجواب عند فرعون الجاهل عجب من حوله من جماعة الجهلة، فقال لهم [أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾] {الشعراء:٢٥}، ثم استهزأ بموسى وجننه فقال [إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾] {الشعراء:٢٧}وحين لم يرهم موسى يفطنون لما نبههم عليه في الكرتين من فساد مسألتهم الحمقاء واستماع جوابه الحكيم غلظ في الثالثة، فقال "[رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ] {الشعراء:٢٨} .(٢)

فأجوبة موسى عليه السلام على فرعون ، روعي فيها الترقي بحسب اعتبار قلة النظر ، وقرب المنظور فيه ، فإن الدلائل المبينة في السماوات والأرض وما بينهما أبعد

(١) انظر: البرهان للزركشي ٤/ ٤٣

(٢) انظر: مفتاح العلوم ليوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي صـ ٣١١ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ،ط: الثانية، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م. وقد ذكر السكاكي أنه يحتمل أن يكون فرعون قد سأل بـ"ما" عن الوصف لكون رب العالمين عنده مشتركا بين نفسه ، وبين من دعاه إليه موسى في قوله: [إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ] {الشعراء:١٦} لجهله وفرط عتوه ، وتسويل نفسه الشيطانية له ذلك الضلال الشنيع من ادعاء الربوبية .أ.هـ وعليه تطابق السؤال والجواب .

متناولا من النظر في دليل أنفسهم وآبائهم فقط ، لأن الأول مشتمل عليه وعلى الآفاق أيضا ، والثاني أبعد من الثالث ، لأن المنظور فيه في الثاني ، وفي الثاني : الانتقال من هيئة إلى هيئة ، ومن حال إلى حال ، من وقت ولادته إلى وقت وفاته في نفس الناظر وفي أنفس آبائه ، وليس كذلك النظر في طلوع الشمس وغروبها ، في فصول السنة ، فأنه أكثر ظهورا ، ولذلك انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله في قوله تعالى : [أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾] {البقرة:٢٥٨}. (١)

وفي سورة طه صورة مشابهة لهذا الحوار بين موسى كليم الله وفرعون لعنه الله ، والذي عدل فيه عن الجواب، قال تعالى: [قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾] {طه:٤٩، ٥٠}

فرعون سأل عن الرب من هو؟ فأجاب موسى بآثار الله في خلقه ، بأن أعطى كل مخلوق ما يناسب تكوينه في هذه الحياة ، ولا يخفى ما بين الجواب والسؤال من المغايرة .

ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابَه على نمط رائقٍ وأسلوب لائقٍ ،حيث بين أنه تعالى عالمٌ قادرٌ بالذات خالقٌ لجميع الأشياء مُنعِمٌ عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضلِ ، وضمّنه أن إرسالَه تعالى إياه إلى الطاغية من جملة هداياته سبحانه إياه بعد أن هداه إلى الحق بالهدايات التكوينيةِ حيث ركّب فيه العقلَ وسائرَ المشاعرِ والآلاتِ الظاهرةِ والباطنة . (٢)

---

(١) انظر: مطابقة الجواب للسؤال في النظم القرآني أ.د / عبد الله محمد سليمان هنداوي صـ ٧٤ مطبعة الأمانة بشبرا ، ط/ الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م

(٢) انظر : مفاتيح الغيب للرازي ٢٢/ ٥٧

ومن هنا قيل: كان من الظاهر أن يقول عليه السّلام: ربنا رب العالمين ، لكن سلك طريق الإرشاد والأسلوب الحكيم ، وأشار إلى حدوث الموجودات بأسرها واحتياجها إليه سبحانه، واختلاف مراتبها ، وأنه تعالى هو القادر الحكيم الغني المنعم على الإطلاق. (١)

قال الزمخشري : ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق. (٢)

واللافت أنه سبحانه حكى عنه في هذه السورة أنه قال :[فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾] {طه:٤٩} ، وقال في سورة الشعراء : [وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾] {الشعراء:٢٣} ، فالسؤال ههنا بـــ"من" وهو عن الكيفية ، وفي سورة الشعراء بـــ "ما " وهو عن الماهية ، وهما سؤالان مختلفان ، والواقعة واحدة . والأقرب أن يقال سؤال "من " كان مقدماً على سؤال "ما" ، لأنه كان يقول إني أنا الله والرب ، فقال: [فَمَن رَّبُّكُمَا] ؟ فلما أقام موسى الدلالة على الوجود ، وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه ، عدل إلى المقام الثاني ، وهو طلب الماهية ، وهذا أيضاً مما ينبه على أنه كان عالماً بالله ، لأنه ترك المنازعة في هذا المقام ، لعلمه بغاية ظهوره ، وشرع في المقام الصعب ، لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر . (٣)

ومن أمثلة ما عدل عنه في الجواب أيضا، قوله تعالى : [قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾] {يس:٥٢}

---

(١) انظر : روح المعاني للألوسي ٨/ ٥١٨

(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ٦٧ الناشر: دار الكتاب العربي — بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

(٣) الكشاف للزمخشري ٣/ ٦٧

فسؤال المنكرين للبعث عمن بعثهم من رقدتهم أعنى موتهم ، فعدل عن ذكر الفاعل ، وأجيبوا بما يبكتهم ويزيد من حسرتهم ، بأن هذا هو البعث الموعود به من الله – عز وجل– على ألسنة الرسل ، والبعث هو القضية الكبرى التي كانت محل إنكارهم واستهزائهم بوعد الله ورسله. [وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾] {النمل:٦٧} [أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾] {ق:٣} [وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾] {الواقعة:٤٧}

فـ [هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ] جواب من قبل الملائكةِ أو المؤمنينَ عُدل به عن سَنَنِ سؤالِهم ، تذكيراً لكُفرهم وتقريعاً لهم عليه ، وتنبيهاً على أنَّ الذي يهُمهم هو السُّؤالُ عن نفسِ البعثِ ، ماذا هو ؟ دون الباعثِ ، كأنَّهم قالُوا: بعثكم الرحمن الذي وعدكُم ذلك في كتبه ، وأرسلَ إليكم الرُّسلَ فصدقُوكم فيه ، وليسَ الأمرُ كما تتوهمونَه ، حتَّى تسألُوا عن الباعثِ. وقيلَ: هُو مِنْ كلامِ الكافرينَ ، حيث يتذكرون ما سمعوه من الرسلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فيجيبونَ به أنفسَهم أو بعضَهم بعضاً. (١)

وجملة [هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ] فيها وجهان، **أحدهما**: أنها مستأنفة: إمَّا من قولِ اللَّهِ تعالى، أو مِنْ قولِ الملائكةِ. والثاني: أنها من كلام الكفارِ فتكون في محلّ نصب بالقول. وحَفْص يقف على «مَرْقَدنا» وَقْفةً لطيفةً دونَ قَطْعِ نَفَسٍ لئلا يُتَوَهَّمَ أنَّ اسمَ الإشارةِ تابعٌ لـــ «مَرْقَدِنا» .

والثاني من الوجهين الأولين: «هذا» صفةٌ ل «مَرْقَدِنا» و «ما وَعَد» منقطعٌ عَمَّا قبله.

---

(١) انظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٧/ ١٧٢

ثم في «ما» وجهان، أحدُهما: أنها في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والخبرُ مقدرٌ أي: الذي وَعَدَه الرحمنُ وصَدَقَ فيه المرسلون حَقٌّ عليكم. والثاني: أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي: هذا وَعْدُ الرحمن. (١)

قال الشهاب : وفيه من البديع صفة تسمى التجاذب، وهو أن تكون كلمة تحتمل أن تكون من السابق أو اللاحق. (٢)

ومن أمثلة ما عدل عنه أيضا قوله تعالى : [وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾] {يس:٧٨،٧٩}

والاستفهام في قوله: [مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ]{يس:٧٨} إنكاري. و{من} عامة في كل من يسند إليه الخبر . فالمعنى: لا أحد يحيي العظام وهي رميم. فشمل عمومه إنكارهم أن يكون الله تعالى محيياً للعظام وهي رميم ، أي في حال كونها رميماً ...

وأُمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول له [يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ] أمر بجواب على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل استفهام القائل على خلاف مراده لأنه لما قال : [مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾] لم يكن قاصداً تطلب تعيين المحيي وإنما أراد الاستحالة ، فأجيب جواب مَن هو متطلبٌ علماً. فقيل له: [يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ]. فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسنداً للمُحيي ، على أن الجواب صالح لأن يكون إبطالاً للنفي المراد من الاستفهام الإنكاري كأنه قيل : بل يحييها الذي أنشأها أول مرة . ولم يُبنَ الجواب

---

(١) انظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٩/ ٢٧٦ الناشر: دار القلم، دمشق

(٢) حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسِيرِ البَيضَاوِي، لشهاب الدين الخفاجي المصري ٧/ ٢٤٦ دار صادر، بيروت

على بيان إمكان الإحياء وإنما جعل بيانُ الإمكان في جعل المسند إليه موصولاً لتدل الصلة على الإمكان فيحصل الغرضان ، فالموصول هنا إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو يحييها ، أي يحييها لأنه أنشأها أول مرة فهو قادر على إنشائها ثاني مرة كما أنشأها أول مرة . (١)

ومن صور العدول عن الجواب ، ألا يجاب عن السؤال ، إذا كان السائل قصده التعنت كقوله تعالى :[وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾] {الإسراء:٨٥} ، ورد في الصحيح في سبب نزول هذه الآية عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – فِي خَرِبِ الْمَدِينَةِ ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ تَسْأَلُوهُ لاَ يَجِيءُ فِيهِ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَنَسْأَلَنَّهُ . فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، مَا الرُّوحُ ؟ فَسَكَتَ . فَقُلْتُ إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ . فَقُمْتُ ، فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ ، قَالَ [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾] {الإسراء:٨٥}. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ قَدْ قُلْنَا لَكُمْ لاَ تَسْأَلُوهُ . (٢)

ويبدو من سبب النزول أن اليهود لم يسألوا ليعلموا ، وإنما سألوا تعجيزا وتغليظا، فجاءهم الجواب مجملا ، فكان هذا الإجمال كيدا يرد به كيدهم. وعليه يكون المراد أن الروح مما استأثر الله بعلمها ، ولم يطلع عليها أحدا من خلقه ، فلا سبيل لكم للسؤال عنها أو معرفة حقيقتها .

---

(١) انظر : التحر والتنوير لابن عاشور ٢٣/ ٧٦، ٧٧

(٢) البخاري في التفسير باب باب (١٢) [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ] {الإسراء:٨٥} رقم (٤٧٢١) والتوحيد باب (٢٨) باب قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾] {الصافات:١٧١} رقم (٧٤٥٦).

قال العلامة أبو السعود تعقيبا على سؤال القوم، والعلة في العدول عن الجواب : وإنما قالوا ذلك لركاكة عقولِهم ، فإن الحكمةَ الإنسانيةَ أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقةُ البشريةُ ، بل ما نيط به المعاشُ والمعادُ ، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهايةَ له من معلوماته سبحانه ، قليلٌ يُنال به خيرٌ كثيرٌ في نفسه ، أو بالنسبة إلى الإنسان ، أو هو من الإبداعيات الكائنةِ بمحض الأمرِ التكوينيِّ من غير تحصّلٍ من مادة ، وتولُّدٍ من أصل كأعضاء الجسدِ حتى يمكن تعريفُه ببعض مباديه ، ومآلُه أنه من عالم الأمرِ، لا من عالم الخَلق ، وليس هذا من قَبيل قوله سبحانه : [إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾] {يس:٨٢} فإن ذلك عبارةٌ عن سرعة التكوينِ سواءٌ كان الكائنُ من عالم الأمرِ أو من عالم الخلقِ ، وفيه تنبيهٌ على أنه مما لا يحيط بكنهه دائرةُ إدراكِ البشر وإنما الممكن هذا القدرُ الإجماليُّ المندرجُ تحت ما استُثني بقوله تعالى: [وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾] أي إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرُق الحواسِّ ، فإن تعقّلَ المعارفِ النظرية إنما هو من إحساس الجزئياتِ ، ولذلك قيل : من فقد حِسًّا فقد علماً ، ولعل أكثر الأشياءِ لا يدركه الحسُّ ولا شيءٌ من أحواله التي يدور عليها معرفةُ ذاتِه.[1] سبحانه وتعالى .

وقيل بمطابقة الجواب للسؤال ، قيل: إنما سألوا عن الروح ، هل هي محدثة مخلوقة أم ليست كذلك ؟ فأجابهم بأنها من أمر الله ، وهو جواب صحيح ، لأنه لا فرق بين إن يقول في الجواب ذلك ، أو يقول من أمر ربي ، لأنه أنما أراد أنها من فعله وخلقه . ذكره الزركشي.[2]

---

(١) انظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٧/ ١٧٢

(٢) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٥،٤٤

وهذا كما ذكر أبو السعود ، مع عدم ملاءمتِه لحال السائلين لا يساعده التعرّضُ لبيان قلةِ علمِهم فإن ما سألوا عنه مما يفي به علمُهم حينئذ ، وقد أُخبر عنه. (١)

وذكر الزركشي قولا ثالثا وهو : أنهم سألوه عن الروح الذي هو في القرآن ، فقد سمى الله القرآن روحا في مواضع من الكتاب (٢)، وحينئذ فوقع الجواب موقعه ، لأنه قال لهم: الروح الذي هو القرآن من أمر ربي ، ومما أنزله الله على نبيه ، يجعله دلالة وعلما على صدقه ، وليس من فعل المخلوقين ولا مما يدخل في إمكانهم . (٣)

وهذا القول أضعف من سابقه ، لأن إطلاق الروح على القرآن ، ليس من الذيوع أو الشهرة عندهم ، حتى يسألوا عنه بلفظ الروح ، بل هو من إطلاقات القرآن ، ومع التسليم بصحة إطلاق الروح على القرآن ، ففيم كان السؤال إذن ، والقرآن يتلى عليهم ، وهذا لا يناسب سياق الآية ، الذي يدل على أن المسؤول عنه أمر غير معاين وغير معلوم ، بدلالة قوله [وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا] .

ويبقى القول الأول هو الراجح ، لموافقته لسياق الآية ، ولمناسبته لما ورد في الصحيح من سبب نزولها.

---

(١) انظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٧/ ١٧٢

(٢) من ذلك قولـه تعـالى :[وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾] {الشورى:٥٢} .

(٣) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٥،٤٤

الزِّيَادَة فِي الْجَوَابِ

وَهي أن يتضمن الجواب المطلوب وزيادة عليه لغرض في ذلك ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى [وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾] {طه:١٧- ١٨} . والغرض من الاستفهام الإيقاظ والتنبيه له عليه الصلاة والسلام ، على ما سيبدو له من التعاجيب .

قال الفراء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هي عصاي لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل . وكان يتم الجواب بمجرد أن يقول عصا، ثم ذكر المسند إليه وزاد فقال: [هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ] زاد في الجواب استلذاذاً بخطاب الله تعالى. وحسنه أنه عليه السلام ، فهم أن السؤال يعقبه أمر عظيم يحدثه الله تعالى في العصا ، فينبغي أن يتنبه لصفاتها حتى يظهر له التفاوت بين الحالين. (١)

وَمن الزيادة في الجواب قَوْلُهُ تعالى : [إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾] {الشعراء:٧٠- ٧١} وهذا من باب الإطناب، إذ لو أريد الإيجاز لكفى أصناما، زادوا في الجواب إظهارا للابتهاج ، والاستمرار على مواظبتها ليزداد غيظ السائل.

---

(١) انظر:الإيضاح للقزويني صـ١٦٢ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٦/ ١٠ وفتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٢٧

وسألهم عليه السلام عما يعبدون ، ليبني على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزل عن استحقاق العبادة بالكلية لا للاستعلام إذ ذلك معلوم مشاهد له عليه السلام . (١)

قال الزمخشري : [مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾] سؤال عن المعبود فحسب، فكان القياس أن يقولوا: أصناما، كقوله تعالى [وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ] {البقرة:٢١٩}، [مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ] {سبأ:٢٣}، [مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا] {النحل:٣٠}. قلت: هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم، وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار. ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم نعبد [فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾] {الشعراء:٧١} ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده. (٢)

أيضا قَوْلُهُ تَعَالَى: [قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾] {الأنعام:٦٤} فِي جَوَابِ: [قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾] {الأنعام:٦٣} وَلَوْ قصد مشاكلة مَا تَقَدَّمَ لَقَالَ: "يُنَجِّيكُمُ اللَّهُ" ، وَقَدَّمَ الْمُسْنَدَ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ لِإِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ، أَيِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ لَا غَيْرُهُ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ صَرَّحَ بِالْفِعْلِ الْمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ. وَلَوْلَا هَذَا لَاقْتَصَرَ عَلَى قُلِ اللَّهُ. وَالضَّمِيرُ فِي مِنْها لِلظُّلُمَاتِ أَوْ لِلْحَادِثَةِ. وَزَادَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ لِإِفَادَةِ التَّعْمِيمِ، وَأَنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالْمَعْنَيَيْنِ لِمُجَرَّدِ الْمِثَالِ. (٣)

---

(١) انظر : روح المعاني للألوسي ١٤/ ٢٤١

(٢) الكشاف للزمخشري ٣١٧/٣

(٣) انظر: البرهان للزركشي ٤٥/٤ والتحرير والتنوير لابن عاشور ٧/ ٢٨٢

والمراد بـ [ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ]: شدائِدهُما، فهو لفظٌ عامٌّ يستغرقُ ما كان مِنَ الشدائدِ بظلمةٍ حقيقيةٍ، وما كان بغَيْر ظلمةٍ، [على سبيل الاستعارة] ، والعَرَبُ تقول: عَامٌ أَسْوَدُ، ويَوْمٌ مُظْلِمٌ، ويَوْمٌ ذو كواكِبَ، يريدُونَ به الشِّدَّة. (١)

والاستفهام في الآية تقرير للمشركين بانحطاط شركائِهم عن رتبةِ الإلهية ، مَنْ ينجِّيكم من شدائدهما الهائلةِ التي تُبطل الحواسَّ ، وتدهش العقولَ ؟ وأُمر صلى الله عليه وسلم بتقرير الجواب بـ [قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ] مع كونه من وظائفهم ، للإيذان بأنه متعيِّنٌ عندهم ولبناءِ قولِه تعالى [ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ] عليه ، أي الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه إلى كشفه من الشدائد المذكورةِ وغيرِها من الغموم والكُرَبِ ، [ثُمَّ أَنتُمْ] بعد ما تشاهدون هذه النعمَ الجليلةَ [تُشْرِكُونَ] بعبادته تعالى غيرَه. (٢)

ومن الزيادة في الجواب أيضا قوله تعالى : [أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾] {الصافات:١٦، ١٧،١٨} ، لو اقتصر على الجواب لاكتفى بنعم ، وجملة [وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ] في موضع نصب على الحال ، من فاعل ما دل عليه { نَعَمْ } أي تبعثون كلكم والحال إنكم صاغرون أذلاء ، وهذه الحال زيادة في الجواب نظير ما وقع في جوابه عليه الصلاة والسلام لأبي بن خلف حين جاء بعظم قد رم

---

(١) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٢/ ٤٧٦ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣/١٤٤، ١٤٥

وجعل يفته بيده ويقول : يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما رم فقال صلى الله عليه وسلم له على ما في بعض الروايات « نعم ويبعثك ويدخلك جهنم ». (١)

النقصان من الجواب

ومثاله قوله تعالى عن مشركي مكة : [وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ ﴿١٥﴾] {يونس:١٥} أي أئت بقرآن ليس فيه سب آلهتنا ، أو بدله بأن تجعل مكان آية العذاب آية الرحمة ، وليس فيه ذكر آلهتنا فأمره الله إن يجيبهم على التبديل ، وطوى الجواب عن الاختراع. قال الزمخشري: فأمر بأن يجيب عن التبديل، لأنه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة. وأما الإتيان بقرآن آخر، فغير مقدور عليه للإنسان. (٢)

وذكر غيره إن التبديل قريب من الاختراع فلهذا اقتصر على جواب واحد لهما . قال الزركشي : وخطر لي أنه لما كان التبديل أسهل من الاختراع ، وقد نفى إمكان التبديل ، كان الاختراع غير مقدور عليه من طريق أولى. (٣)

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي١٢/ ٧٧ وفي أثر أبي بن خلف انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٣٦٤،٣٦٥

(٢) الكشاف للزمخشري ٢/ ٣٣٤

(٣) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٥

إعادة السؤال في الجواب

أصل الجواب إن يعاد فيه نفس سؤال السائل، ليكون وفق السائل، قال الله تعالى: [قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾] {يوسف: ٩٠} ، و"أنا" في جوابه عليه السلام هو "أنت" في سؤالهم .

والاستفهام في الآية للتقرير، ولذلك أكدوه بأن واللام، قالوه استغراباً وتعجباً، ...و[أَنَا۠ يُوسُفُ]جوابا عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله: [وَهَٰذَآ أَخِي] أي من أبويّ مبالغةً في تعريف نفسه وتفخيماً لشأن أخيه وتكملةً لما أفاده قوله[هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ]{يوسف:٨٩}حسبما يفيده قولُه:[قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ]{يوسف:٩٠}فكأنه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال، فأنا يوسفُ وهذا أخي، قد منّ الله علينا بالخلاص عما ابتُلينا به، والاجتماعِ بعد الفُرقةِ، والعزة بعد الذِلة، والأُنس بعد الوحشة، ولا يبعُد أنْ يكونَ فيه إشارةٌ إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أخوكم، فلا وجهَ لطلبكم.(١)

وقوله تعالى:[قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ ﴿٨١﴾]{آل عمران:٨١} فأقررنا في الجواب هي أقررتم في السؤال، ولكن الجواب حذفت منه بقية ما في السؤال، لدلالة ما سبق عليه، وهي[وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ]فتقدير الجواب: أقررنا وأخذنا على ذلك إصرك.

---

(١) انظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣/١٤٤، ١٤٥

ومن أمثلة إعادة السؤال في الجواب، هذان السؤلان في الآيتين من سورة يونس ، قال تعالى : [قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾] {يونس:٣٤،٣٥}.

وإعادة جملة السؤال في الجواب بتمامها غير محذوفة الخبر، أبلغ في الرد على المشركين، حيث تفيد القصر، والمعنى: الله وحده هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، والله وحده هو الذي يهدي للحق. وإنما أتى بالجواب جملةً اسميةً مُصَرَّحاً بجزأيها، مُعَاداً فيها الخبر، مطابقاً لخبر اسم الاستفهام للتأكيدِ والتثبيت.

والسؤال للتبكيت والإلزام، وجعل سبحانه الإعادة لسطوع البراهين القائمة عليها بمنزلة البدء في إلزامهم، ولم يبال بإنكارهم لها، لأنهم مكابرون فيه، والمكابر لا يلتفت إليه فلا يقال:إن مثل هذا الاحتجاج إنما يتأتى على من اعترف بأن من خواص الإلهية بدء الخلق ثم إعادته، ليلزم من نفيه عن الشركاء نفي الإلهية، وهم غير مقرين بذلك، ففي الآية الإشارة إلى أن الإعادة أمر مكشوف ظاهر بلغ في الظهور والجلاء بحيث يصح أن يثبت فيه دعوى أخرى.(١)

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينوب عنهم في الجواب فقال:[قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ].ولا بأس أن ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم في الجواب، كما قاله غير واحد لأن المقول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وإن كان مستلزما له، إذ ليس المسئول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما في قوله سبحانه: [قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ] {الرعد:١٦} حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذي أريد منهم ، ويكون صلّى الله عليه وسلم نائبا عنهم في ذلك، بل إنما هو وجود من يفعل البدء والإعادة من شركائهم فالجواب

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٦/ ١٠٦

المطلوب منهم "لا" غير. نعم أمر-صلّى الله عليه وسلم-بأن يضمنه مقالته إيذانا بتعينه وتحتمه وإشعارا بأنهم لا يجترؤون على التصريح به مخافة التبكيت والقام الحجر.(١) وجعل الزركشي ما في الآيتين من باب حذف السؤال، والجواب المذكور جواب لسؤال محذوف، معللا بأنه لا يستقيم إن يكون السؤال والجواب من واحد، فتعين إن يكون:[قُلِ ٱللَّهُ] جواب سؤال [المشركين]،كأنهم سألوا لما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [مَن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ] فأجابهم الله عز وجل [قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ]، فترك ذكر السؤال(٢).

وما ذكره فيه نظر، وفيما طالعته عيناي لم أجد أحدا من المفسرين قال به، وما ذكره من أنه لا يستقيم أن يكون السؤال والجواب من واحد، صحيح في الاستفهام الحقيقي، وفي المجازي لا يلزم، لأن السائل لا يسأل عن جهل، والله عز وجل لا يستفهم خلقه على سبيل الحقيقة، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويبكتهم ويلزمهم الحجه، لذا لا مانع أن يأمر الله رسوله بالسؤال والجواب على نحو ما في الآيتين، ولهذا نظائر في القرآن، قال تعالى: [قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾] {الأنعام:٦٣،٦٤} [وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾] {الأنعام:٩١} [قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾] {سبأ:٢٤} .

****

(١) المرجع السابق ٦/ ١٠٦

(٢) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٥

المبحث الثامن

الحذف في السؤال والجواب

إذا قلنا في أسلوب القرآن حذفا، فلسنا ننسب الحذف إلى مضمون القرآن ، وإنما ننسبه إلى تركيب اللغة ، ذلك بأن اللغة تجعل للجملة العربية أنماطا تركيبية معينة ، ففي الجملة أركانها ومكملاتها، وفي عناصرها ما يفتقر إلى غيره ، وما لا يستغني المعنى عن تقديره ، فإذا لم تشتمل الجملة على أحد أركانها، أو ما يقتضيه المعنى، أو يقتضيه التركيب من مكملاتها وعناصرها الأخرى، ثم اتضح المعنى بدون ذكر هذه العناصر، لوجود الدليل على المحذوف، عددنا ذلك حذفا جيء به لطلب الخفة اختصارا أو اقتصارا أو تجنبا للحشو، أو لسبب آخر غير ذلك .

وكل عنصر من عناصر الجملة صالح لأن يحذف إذا قام الدليل عليه ، فأمكن تقديره في الكلام. ولقد يحسن أحيانا أن يحذف الحرف أو الضمير أو الكلمة المفردة أو أحد أركان الجملة أو تكملاتها، كما يحذف من الكلام ما يقتضيه المعنى ، وإن طال الكلام المحذوف. (١)

حذف أداة الاستفهام :

منه قوله تعالى : [وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾]{البقرة:١٢٤}، قوله:[وَمِن ذُرِّيَّتِي] يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم ، أي : واجعل من ذريتي أئمة ، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم– عليه السلام– بقصد الاستفهام ، وإن لم يكن بصيغته : أي : ومن ذريتي ماذا

(١) التبيان في روائع القرآن د/تمام حسان ٢/ ١٠٩

يكون يا ربّ؟ فأخبره أن فيهم عصاة ، وظلمة ، وأنهم لا يصلحون لذلك ، ولا يقومون به ، ولا يناهم عهد الله سبحانه . (١)

وقوله : [وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾] {الشعراء:٢٢} ، قدر الأخفش همزة استفهام للإنكار قبل:[وَتِلْكَ]، كأنّه قال "أَوَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تُمنُّها"، ثم فسر فقال [أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ] وجعله بدلاً من النعمة. أي ليست هذه نعمة حتى تمنها علي.(٢)

حذف الفعل في الجواب:

سأل الزركشي: هل الأولى التصريح بالفعل أو حذفه؟ وهل يختلف المعنى في ذلك؟ ومضمون كلام الزركشي أن الأجود هو الحذف، وهو الأكثر، **وذكر للحذف فائدتان:**

١-التنصيص على أنه جواب، بخلاف ما إذا ذكر الفعل، احتمل أن يكون جواب وأن يكون كلاما مبتدأ. فإنه إذا قيل: من جاء؟ فقلت: جاء زيد، احتمل إن يكون جوابا وأن يكون كلاما مبتدأ، ولو قلت: زيد، كان نصا في أنه جواب.

٢-الحصر بتخصيص المذكور من العموم المستفاد من "مَنْ" التي في السؤال، وكأنك قلت الذي جاء زيد فيفيد الحصر. (٣)

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ١/ ١٦٠

(٢) انظر: معاني القرآن للأخفش ٢/ ٤٦١ تحقيق: الدكتورة :هدى محمود قراعة ،الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م وحاشية الجمل على الجلالين ٥/ ٢٨٦

(٣) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٨

وليس معنى أن الحذف هو الأجود والأكثر، أن الذكر يخلو من البلاغة ، وهذا ليس بصحيح في القرآن ، فما ذكر في القرآن ، سواء أكان ذكرا أم حذفا فهو بليغ في موضعه ، بل في قمة البلاغة ، والذكر في موضعه له من البلاغة ما ليست في الحذف .

وباستعراض آيات من القرآن الكريم ، وجدت الحذف في أكثرها ، ومن أمثلتها:

[وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾] {العنكبوت:٦١} [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾] {العنكبوت:٦٣} [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾] {لقمان:٢٥} [قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾] {سبأ:٢٤} [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾] {الزمر:٣٨} [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾] {الزخرف:٨٧} ومن أمثلة الذكر قوله تعالى: [قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾] {يس:٧٨،٧٩}] فلَعَلَّ ذكر الفعل لِلتَّنْصِيصِ عَلَى الْإِحْيَاءِ الَّذِي أَنْكَرُوهُ.

وقوله تعالى: [فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾] {التحريم:٣} لأن حفصة استغربت حصول النبأ الذي أسرته لعائشة. وظنت أن عائشة فضحتها فقالت:[مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا] على سبيل التثبت ، فأخبرها أن الله هو الذي نبأه به ،

فسكت وسلمت.(١) وقوله تعالى:[وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾]{الزخرف:٩} لِأَنَّ ظَاهِرَ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعَطِّلَةً وَدَهْرِيَّةً ، فَأُرِيدَ التَّنْصِيصُ عَلَى اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ.(٢)

وكرر الفعل في الجواب في قوله: [خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾] {الزخرف:٩}، مبالغة في التوكيد... وجاء الجواب مطابقاً للسؤال من حيث المعنى، لا من حيث اللفظ، على ما زعم أبو حيان، لأن "من" مبتدأ. فلو طابق في اللفظ، كان بالاسم مبتدأ، ولم يكن بالفعل. بأن يقال: العزيز العليم خلقهن. (٣)

و[ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ] هو من قول الله لا من قولهم. والمعنى [لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ] الذي من صفته كيت وكيت، لينسبنّ خلقها إلى الذي هذه أوصافه، وليسندنه إليه. ذكره الزمخشري.(٤) وهذا حسن، وله نظير عرفا، وهو أن واحدا لو أخبرك أن الشيخ قال : كذا، وعنى بالشيخ شمس الأئمة ، ثم لقيت شمس الأئمة ، فقلت: إن فلانا أخبرني أن شمس الأئمة قال: كذا مع أن فلانا لم يجر على لسانه إلا الشيخ ، ولكنك تذكر ألقابه وأوصافه ، فكذا هاهنا الكفار يقولون: خلقهن الله، لا ينكرون، ثم إن الله- عزّ وجلّ- ذكر صفاته، أي: إن الله تعالى، الذي يحيلون عليه خلق السموات والأرض، من صفته سبحانه كيت وكيت.

---

(١) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٩ والبحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ٢١٠

(٢) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٩

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٩/ ٣٦١ الناشر: دار الفكر – بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

(٤) انظر : الكشاف للزمخشري ٤/ ٢٣٨

وذكر الألوسي عن ابن المنير[١]: إن [ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ]من كلام المسئولين، والآية بعدها من كلام الله، وهو قوله: [وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ] {الزخرف: ١١}. وجعله الألوسي الأظهر من حيث اللفظ[٢]،وعليه يقع الالتفات، في[فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ]. وذكر الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز: أن السؤالَ إذا كانَ ظاهراً مذكوراً ، كان الأكثرُ أنْ لا يُذكرَ الفعلُ في الجوابِ، ويُقْتَصرَ على الاسمِ وحدهَ. فأما مع الإضمار فلا يجوزُ إلاَّ أن يُذْكرَ الفعلُ،... لأنه إنَّما يجوزُ تركُه حيثُ يكونُ السؤالُ مذكوراً، لأَن ذكرَه فيه يدلُّ على إرادتِه في الجوابِ، فإذا لم يوت بالسُّؤالِ لم يكن إلى العلم بهِ سبيلٌ.[٣] قال الزركشي : وهو مشكل بقوله تعالى: [يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ] {النور:٣٦،٣٧} فيمن قرأها بفتح الباء [يسبَّح] ، كأنه قيل: من يسبحه ؟ فقيل يسبحه رجال.[٤] وَقَرَاءة الفتح هي قراءة ابْن عَامر ، وَعَاصِم في رِوَايَة أَبي بكر بن عياش. [٥]

---

(١)هو عبدالواحد بن منصور بن محمد بن المنير، أبو محمد، فخرالدين الاسكندريَ المالكي (٦٥١-٧٣٣هـ -١٢٥٣-١٣٣٣ م) مفسر، له شعر ونظم في "كان وكان" وفاته بالاسكندرية. من كتبه "تفسير" في٦ مجلدات، و"أرجوزة "في القرآت السبع، و"ديوان" في المدائح النبويه. انظر: الأعلام للزركلي ٤/ ١٧٧ ط/ دارالعلم للملايين،ط/الخامسة ١٩٨٠م

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ١٣/ ٦٦، ٦٧

(٣) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني صـ ٢٣٩

(٤) انظر : البرهان للزركشي ٤/٥١

(٥)انظر:كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد البغدادي ص٤٥٦المحقق: شوقي ضيف، الناشر:دارالمعارف-مصرالطبعة:الثانية،١٤٠٠هـ وأبوبكر بن عياش، راوي عاصم، واسمه شعبة بن عياش بن سالم أبوبكر الحناط ، الأسدي النهشلي الكوفي ، الإمام العلم راوي عاصم، توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة وقيل: سنة

حذف جملة السؤال :

كثيرا ما يأتي الكلام ، كأنه جواب لسؤال مقدر . وهو ما يعرف بالاستئناف البياني ، وهو ما يكون جوابا لسؤال مقدر أثارته الجملة السابقة . هذا بخلاف الاستئناف النحوي ، الذي يبدأ به الكلام ، من غير تقدير لسؤال ، لانقطاع الكلام به عما قبله . وجملة الاستئناف البياني يكون بينها وبين سابقتها شبه كمال اتصال ، وهو من مواضع الفصل بين الجمل ، لذا يترك العطف . وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى وقوعه بكثره حيث قال : وإذا استقريتَ وجدتَ هذا الذي ذكرتُ لك، من تنزيلِهم الكلام إذا جاء يعقب ما يقتضي سؤالًا، منزلته إذا صرح بذلك السؤالِ كثيراً.(١)

من ذلك قوله تعالى: [أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥] {البقرة:٥} عقب تعداد صفات المتقين في صدر سورة البقرة ، كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأنّ أولئك الموصوفين، غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا، وبالفلاح آجلا.

قال الزمخشري : واعلم أنّ هذا النوع من الاستئناف يجيء تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث، كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان. وتارة بإعادة صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك ، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ، لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه.(٢)

أربع وتسعين. انظر: غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، الناشر: مكتبة ابن تيمية، الطبعة: عني بنشره لأول مرة عام ١٣٥١هـ ج. برجستراسر .

(١) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني صـ ٢٣٥

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ١/ ٤٤

وقوله تعالى : [وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾] {البقرة:٨،٩}

وعلاقة [يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟] {البقرة:٨،٩} بما قبلها أنها جواب سؤال مقدر ناشئ من الآية التي قبلها، كأن سائلا سأل: ما سبب قول المنافقين: آمنا بالله وباليوم الآخر والحال أنهم ليسوا بمؤمنين. فجاء الجواب في هذه الآية، فبينها وبين سابقتها شبه كمال اتصال، لذا لم تبدأ بحرف العطف، أي هم يقولون ما يقولون خداعا لله وللذين آمنوا.

وقوله تعالى : [وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾] {البقرة:١٤،١٥}

فـ [ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ] في معنى الجواب عن هذا المقدر وقوعه في أنفس السامعين . مبتدأ غيرَ معطوف، ليكونَ في صورتِهِ إذا قيل: "فإنْ سألتم قِيلَ لكم": [ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ]. (١)

ما جاء في القرآن من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف :

ويطرد حذف السؤال أيضا، فيما جاء في القرآن من لفظ " قال " مفصولا غير معطوف، فهو جواب لسؤال مقدر، يدل عليه "قال"، لذا تعين ذكر الفعل في الجواب، لكونه محذوف السؤال، على نحو ما سبق ذكره. وإليك ما ذكره الشيخ عبد القاهر نصا في هذا الأمر، ففيه ما يشفي ويغني عن كثير الكلام من أمثالي، قال رحمه الله :

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني صـ ٢٣٥

واعلم أنَّ الذى تراهُ في التنزيلِ من لفظِ "قال" مَفصولاً غيرَ معطوف، هذا هو التقديرُ فيه، واللهُ أعلم. أعني مثلَ قولِه تعالى: [هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ] {الذاريات: ٢٤- ٢٨} جاء على ما يقعُ في أنفسِ المخلوقين منَ السُّؤال. فلما كان في العُرفِ والعادةِ فيما بينَ المخلوقينَ إذا قيل لهم: "دخلَ قوم على فلان فقالوا كذا"، أخرجَ الكلامَ ذلك المُخرجَ، لأنَ الناسَ خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللطف معهم المَسْلكُ الذي يَسْلُكُونه. وكذلك قولُه: [قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ]، وذلك أن قولَه : [فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ]، يقتضي أن يُتْبعَ هذا الفعلُ بقولٍ: فكأنه قِيل واللهُ أعلمُ: "فما قال حينَ وَضَعَ الطعامَ بين أيديهم؟ "، فأتى قولُه: [قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ] جواباً عن ذلك. وكذا: [قَالُوا۟ لَا تَخَفْ] لأنَّ قولَه: [فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً]، يقتضي أن يكونَ من الملائكةِ كلامٌ في تأنيسِه وتَسكينه مما خامَره، فكأنه قيلَ: "فما قالوا حينَ رأوه وقد تغيَّرَ ودخلتْه الخيفةُ؟ " فقيل: [قَالُوا۟ لَا تَخَفْ].

وذلك، واللهُ أعلم، المعنى في جميع ما يجيءُ منه على كثرتِه، كالذي يجيءُ في قِصَّةِ فرعونَ عليه اللعنةُ، وفي رَدِّ موسى عليه السلام عليه كقولِه: [قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾] {الشعراء: ٢٣- ٣١}، جاء ذلك كلُّه، واللهُ أعلمُ، على تقديرِ السؤال والجوابِ كالذي جرتْ به العادةُ فيما بين المخلوقين، فلما كان السامع منا إذا سَمِع الخبرَ عن فرعونَ بأنه قال: [وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾]، وقعَ في نفسه أن يقول: "فما قال موسى له؟" أتى قوله: [قَالَ رَبُّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ] مأتى الجوابِ مبتدأ مفصولاً غيرَ معطوف. وهكذا التقديرُ والتفسيرُ أبداً في كل ما جاءَ فيه لفظُ "قال" هذا المجيء، وقد يكونُ الأمرُ في بعضِ ذلك أشدَّ وضوحاً. فمما هوَ في غاية الوضوح قولُهُ تعالى: [قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾] {الحجر:٥٧، ٥٨}، وذلك أنّه لا يَخْفى على عاقلٍ أنه جاء على معنى الجواب، وعلى أن نزل السامعون كأنهم قالوا: "فما قالَ له الملائكةُ؟"، فقيل: [قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾] {الحجر:٥٨} .

وكذلك قولُه عزَّ وجلَّ في سورة يس [وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾] {يس:١٣، ٢١}، التقدير الذي قدرناه من معنى السؤل والجواب ، بين ظاهر في ذلكَ كلّه، ونسألُ الله التوفيقَ للصَّواب، والعصمة من الزلل. (١)

****

(١) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني صـ ٢٤٠- ٢٤٢

المبحث التاسع

المشاكلة بين الجواب والسؤال

الأصل في الجواب أن يكون مشاكلا للسؤال، فإن كان السؤال جملة فعلية ، فينبغي أن يكون الجواب كذلك، ويجيء ذلك في الجواب المقدر أيضا .[1] فالمراد بالمشاكلة هنا المطابقة اللفظية ، في الإسمية والفعلية ونحوهما .

فإذا قلت: "زيد" في جواب: من قام؟ تعين عند علماء البيان، أن "زيد" مبتدأ لوجهين :

الأول: للمطابقة بين السؤال والجواب ، فالسؤال جملة إسمية فكذلك الجواب .

الثاني : أن اللبس لم يقع في الفعل، وإنما في الفاعل، فوجب أن يقدم في المعنى.

ولكن الأمر يختلف عند النحويين، حيث ذكر الزركشي، نقلا عن ابن الزملكاني[2] في البرهان ، أن النحويين قالوا : إن "زيد" فاعل ، في جواب : من قام ؟ على تقدير : قام زيد . وهذا عندهم من باب حذف الفعل ، على جعل الجواب جملة فعلية ، لا مبتدأ ، مع احتماله ، جريا على عادتهم في الأجوبة إذا قصدوا تمامها ، كما في قوله تعالى : [قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾] {يس:٧٨،٧٩} ، وقوله : [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾]

---

(١) انظر : البرهان للزركشي ٤٧/٤ والإتقان للسيوطي ٢/ ٢٠٢

(٢) هو محمد بن على بن عبد الواحد الأنصاري الدمشقي ابن الزملكاني كمال الدين، ولد في ٦٦٧ هـ أطلق عليه الذهبي عالم العصر وكبير الشافعية، وكان بصيرا بالمذهب وأصوله قوى العربية ذكيا فطنا وكان يضرب بذكائه المثل أفتى وله نيف وعشرون سنة.مات في رمضان ٧٢٧هـ ودفن بالقرافة بالقرب من الإمام الشافعي.انظر:البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني٢/٢١٣،٢١٢الناشر:دارالمعرفة- بيروت

{الزخرف:٩} [يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ] {المائدة:٤}

فلما أتى بالجملة الفعلية، مع فوات مشاكلة السؤال، علم أن تقدير الفعل أولا أولى. ومما رجح به أيضا تقدير الفعل أنه حيث صرح بالجزء الأخير، صرح بالفعل، والتشاكل ليس واجبا، بل اللائق كون "زيد" فاعلا أو خبرا أي القائم زيد، لا مبتدأ، لأنه مجهول.[1] ولذا فالمشاكلة اللفظية بين السؤال والجواب، ليست محل اتفاق، فبينما يقول بها البيانيون، يراها النحويون أنها غير ملزمة، وتمام الجواب عندهم يكون بالجملة الفعلية، بصرف النظر عن مشاكلة السؤال.

وعليه أكرر القول: كيفما وقع النص في القرآن فثم البلاغة، بل قمة البلاغة، سواء وقعت المشاكلة أم لم تقع، وتأمل قوله تعالى: [وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ] {النحل:٣٠} وقوله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾] {النحل:٢٤}.

في الآية الأولى وقع التطابق بين السؤال والجواب في الفعلية، والتقدير: أنزل خيرا. قال الجمل: ماذا بتمامها استفهامية مفعول مقدم، فجملة السؤال فعلية، وهذا أنسب هنا لأجل كون الجواب جملة فعلية ،لأن "خيرا " مفعول بفعل محذوف. [2]

وفي الآية الثانية لم يقع التطابق، قال الزركشي: لأنهم لو طابقوا لكانوا مقرين بالإنزال ، وهم من الإذعان به على تفاوت. [3] فـ " أساطير الأولين " خبر لمبتدأ مضمر ،

---

(١) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٧- ٤٩

(٢) حاشية الجمل على تفسير الجلالين ٢/ ٢٣٠

(٣) انظر : البرهان للزركشي ٤/٤٩

أي : هو أساطير ، أو المذكور أساطير . حيث لا يستقيم إقرارهم بالإنزال مع " أساطير الأولين " إلا على سبيل السخرية والتهكم ، كقوله : [قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾] {الشعراء:٢٧} ،أي : المنزل أساطير ، أو على سبيل الفرض في زعمهم ، أي على تقدير أنه منزل فهو أساطير الأولين لا تحقيق فيه . (١)

قال الزمخشري : فإن قلت: لم نصب هذا [يعني خيرا] ورفع الأول [يعني أساطير]؟ قلت: فصلا بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال، فقالوا خيراً: أي أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال في شيء. (٢) وعند التأمل نلحظ أن ما ذكروه من المطابقة وغير المطابقة ، مبني على اعتبار السؤال جملة فعلية ، فـ"ماذا" بتمامها مفعول مقدم منصوب بأنزل، بمعنى: أي شيء أَنْزَلَ رَبُّكُمْ .

وقد ذكروا في جملة السؤال قولا آخر وهو : أن " ما " اسم استفهام مرفوع بالابتداء، وذا بمعنى الذي ، والتقدير: أيّ شيء الذي أنزله ربكم.(٣) فجملة السؤال إسمية ، وعليه فـ" أساطير" جواب مرفوع طابق السؤال في كون كل منهما جملة إسمية.

وقد أبان الشهاب الخفاجي الفرق بين اعتبار الإسمية والفعلية في جملة السؤال للكفار فقال : وإذا قيل للكفار أي شيء أنزله ربكم لم يكن جوابهم إلا " ما أنزل من شيء" ، وما تدعون إنزاله أساطير الأولين ، لأنهم لا يقرون بإنزاله من الله، ولذا لم يقرأ "أساطيرَ" بالنصب في المشهور، وإن قرئ به شاذا كما ذكره العرب ، فلا وجه لإنكاره . أما إذا قيل لهم أي شيء الذي أنزل ربكم ، فالإنزال لما جعل صلة كان ثابتا عند السامع ، فجوابهم

---

(١) انظر : الكشاف للزمخشري ٢/ ٦٠٣ ، وتفسير البيضاوي ٣/ ٢٢٤

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ٢/ ٦٠٣

(٣) انظر : الكشاف للزمخشري ٢/ ٦٠١ وحاشية الشهاب على البيضاوي ٥/ ٣٢٣

المنزل أساطير الأولين ، لكن إثباتهم الإنزال لا يكون إلا على سبيل السخرية كما سيأتي، وهذا هو الذي أوجب اختلاف التقدير في الجواب بحسب الإعراب. (١)

وعلى القول بإسمية جملة السؤال في الآيتين، لا يكون هناك تطابق بين السؤال والجواب في الإسمية والفعلية في [وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا] {النحل: ٣٠}. ولعل السر في فعلية الجواب في سؤال المتقين، ما ذكره الشهاب الخفاجي بقوله :

واختير كونها فعلية هنا دون ما مر في قوله [أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ]، حيث رفع من غير نظر إلى احتمال "ماذا" الخ للفعلية ، لأن الإنزال يناسب الفعل لتجدده بخلاف كونه أساطير فإنه على زعمهم الفاسد أمر متقدم ثابت فلذا غاير. (٢)

وهكذا نرى أن المطابقة اللفظية ، محل نظر بناء على اختلاف وجهة نظر المعربين في إعراب جملتي السؤال والجواب. وتبقى المطابقة المعنوية هي الأهم وعليه تكون البلاغة، التي هي مراعاة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، حتى وإن لم يطابق الجواب السؤال لفظا. وتبدو المطابقة اللفظية والمعنوية بين السؤال والجواب في هذه الآيات :

[قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾] {المؤمنون: ٨٤-٨٩}

في هذه الآيات جاء الجواب بلفظ الجلالة مقترنا بحرف الجر اللام ، مطابقا للسؤال الأول – المبدوء أيضا بنفس الحرف – لفظا ومعنى ، وفي الموضعين الأخيرين جاء الجواب مقترنا

---

(١) انظر : حاشية الشهاب على البيضاوي ٥/ ٣٢٣

(٢) انظر : حاشيةالشهاب على البيضاوي ٥/٣٢٧

باللام نظرا للمعنى ، والتقدير في الأول منهما: قل من له السماوات السبع؟ وفي الثاني : قل من له ملكوت كل شيء؟ ، فلام الجر مقدرة في السؤال فظهرت في الجواب نظرا للمعنى.

وقرأ أبو عمرو: «**سيقولون اللهُ**» في الأخيرتين من غير لامِ جَرّ، رَفَعَ الجلالةَ، جواباً على اللفظِ لقولِه «مَنْ» [مِنْ] قولِه: «**سيقولون اللهُ**، قل: أفلا تَتَّقون» «**سيقولون اللهُ**، قُلْ **فأنى تُسْحَرون**» لأنَّ المسؤولَ به مرفوعٌ المحلِّ وهو «مَنْ» فجاء جوابُه مرفوعاً مطابقاً له لفظاً، وكذلك رُسِمَ الموضعان في مصاحفِ البَصرة. والباقون «لله» في الموضعين باللام، وهو جوابٌ على المعنى؛ لأنَّه لا فَرْقَ بين قولِه «مَنْ ربُّ السماوات» وبين قولِه «لِمَنِ السماوات». ولا بينَ قولِه «مَنْ بيده» ولا «لِمَنْ له» إلاَّ جارُّه. وهذا كقولِك: مَنْ ربُّ هذه الدار؟ فيقال: زيدٌ. وإن شِئْتَ: لزيدٍ؛ لأنَّ السؤالَ لا فرقَ فيه بين أن يقال: لِمَنْ هذه الدارُ، ومَنْ ربُّها؟ واللامُ مرسومةٌ في مصاحفهم فوافقَ كلٌّ مُصْحَفَه، ولم يُخْتَلَفْ في الأول أنه «لله» لأنه مرسومٌ باللام. وجاء الجوابُ باللامِ كما في السؤال. ولو حُذِفَتْ من الجواب لجاز؛ لأنه لا فرقَ بين «لِمَن الأرضُ» و «مَنْ رَبُّ الأرض» إلاَّ أنَّه لم يَقْرَأْ به أحدٌ. (١)

وهكذا نرى أن المشاكلة اللفظية بين السؤال والجواب ، ليست بلازمة ، وعادة ما تكون محل نظر عندهم ، والأهم هو المطابقة المعنوية ، وهذه ليست محل شك في كلام [لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾] {فصلت:٤٢} . صدق الله العظيم .

****

(١) انظر : الدر المصون للسمين الحلبي ٨/ ٣٦٣ وحاشية الجمل على الجلالين ٥/ ٢٥٩

الخاتمة

في ختام هذه الرحلة ، مع السؤال والجواب في النظم القرآني ، يحسن تسجيل هذه النتائج :

استخدم القرآن أسلوب السؤال والجواب كثيرا ، في تحقيق مقاصده وغاياته .

ليس كل سؤال استفهام ، وكل استفهام سؤال .

السؤال وسيلة هامة للتعليم ، والوصول للحق .

المعاني البلاغية للسؤال في القرآن كثيرة ومتنوعة .

سؤال الله في القرآن ليس على الحقيقة .

السؤال سبب لنزول العديد من الآيات في القرآن.

السؤال والجواب أسلوب من أساليب التفسير القرآني للقرآن .

السؤال وسيلة لإبطال العقائد الفاسدة ، وبيان حقية الوحي والرسالة.

أسئلة المشركين عادة ما تكون تعنتا وعنادا .

أسئلة الصحابة كانت مدخلا للتشريع .

السؤال ينبغي أن يكون فيما فيه فائدة ، وكثرة السؤال نهى عنها الإسلام .

أمة محمد صلى الله عليه وسلم أقل الأمم سؤالا.

الإنكار من أكثر المعاني البلاغية للسؤال في القرآن .

القرآن الكريم يصحح مسار السؤال ، ويأتي بالجواب مراعاة لمقتضى الحال.

المطابقة المعنوية بين السؤال والجواب هي المعتبرة في بلاغة الكلام .

البلاغة فيما جاء في القرآن كيفما كان .

وبعد، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم .

****

المراجع

الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ، خرج أحاديثه : أحمد بن شعبان بن أحمد ، مكتبة الصفا، القاهرة ، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، المحقق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر الناشر: دار الجيل، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م تحقيق : علي محمد البجاوي .

أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن، المؤلف: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، (ت: نحو٥٠٥هـ)، المحقق: عبد القادر أحمد عطا ، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض ، دار النشر: دار الفضيلة ،

الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر : دار الجيل – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ تحقيق : علي محمد البجاوي

الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت:١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م

أعمار الأعيان لابن الجوزي ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب .تحقيق د/ محمود محمد الطناحي .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ت: ٧٣٩) تحقيق الدكتور / رحاب عكاوي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م

البحر المحيط في التفسير ، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) ، المحقق: صدقي محمد جميل ، الناشر: دار الفكر – بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .

البلاغة العربية، المؤلف: عبدالرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ) ، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦م

البيان في روائع القرآن ، د/ تمام حسان ،الناشر : مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٣م

تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت:١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

التعريفات ،المؤلف : علي بن محمد بن علي الجرجاني، الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ تحقيق : إبراهيم الإبياري

تفسير الجلالين لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي ، وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الناشر : دار الحديث – القاهرة ،الطبعة الأولى .

تفسير القرآن العظيم لابن كثير دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط: الثانية ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م المحقق: سامي بن محمد سلامة.

التفسير الكبير المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت، الطبعة:الأولى،١٤٢١هـ ٢٠٠١م

جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) ط / مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط / الثالثة ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م

جامع بيان العلم وفضله ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ) ، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري ، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، قدم له: خليل محي الدين الميس مراجعه: صدقي محمد جميل، خرج أحاديثه: عرفات العشا، دارالفكر، بيروت لبنان ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ) ، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القاضي وكِفَايةُ الرَّاضي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي ، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ) ، دار النشر: دار صادر – بيروت.

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)

الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطى (ت:٩١١هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط / الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) المحقق: محمود محمد شاكر ، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة ، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

روح البيان ، المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء (ت: ١١٢٧هـ) ، الناشر: دار الفكر – بيروت

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف : محمود الألوسي أبو الفضل الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت.

زاد المسير في علم التفسير ، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ، المحقق: عبد الرزاق المهدي ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، الناشر : دار الفكر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد.

سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي(ت: ٢٧٩هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون.

سير أعلام النبلاء المؤلف : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى:٧٤٨هـ) المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ : شعيب الأرناؤوط الناشر : مؤسسة الرسالة الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

صحيح البخاري (ت :٢٥٦ هـ) طبعة : المكتبة السلفية ، ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط/ الثالثة ١٤٠٧ هـ .

صحيح مسلم بشرح النووي للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦) إشراف: علي عبد الحميد أبو الخير طبعة : دار الخير للطباعة والنشر ، توزيع دار السلام بالقاهرة .

صحيح مسلم (ت :٢٦١ هـ) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٧٢ م .

العجاب في بيان الأسباب لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني الناشر : دار إبن الجوزي – الدمام ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م تحقيق : عبدالحكيم محمد الأنيس .

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، المؤلف: أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (ت: ٧٧٣هـ)، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي ، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

عون المعبود شرح سنن أبي‌داود المؤلف: محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب

غاية النهاية في طبقات القراء، المؤلف: شمس‌الدين أبوالخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى:٨٣٣هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية ، الطبعة: عني بنشره لأول مرة عام ١٣٥١هـ ج. برجستراسر.

غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ) ، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ

فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ط/ دار الريان للتراث والمكتبة السلفية ، ط/ الثالثة ١٤٠٧ هـ

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق د: عبد الرحمن عميرة ، ط: دار الوفاء بالمنصورة ،ط / الثانية ١٤١٨هـ /١٩٩٧م

الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية . المؤلف : سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل . ط/ دار الفكر ١٤١٥هـ ١٩٩٤م

القاموس القويم للقرآن الكريم ، للأستاذ / إبراهيم أحمد عبد الفتاح ،دار الكلمة للنشر والتوزيع بالمنصورة ،الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

كتاب السبعة في القراءات المؤلف: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت: ٣٢٤هـ) المحقق: شوقي ضيف الناشر: دار المعارف – مصر الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ

كتاب الكليات ـ لأبي البقاء الكفومي ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، تأليف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م. ، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري دار الكتاب العربي ، بيروت، طـ: الثالثة ، ١٤٠٧ هـ

الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ، لمحمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني (ت: ٧٨٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (ت:٧٤١هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

لباب النقول في أسباب النزول ،المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ)، ضبطه وصححه: أ/أحمد عبدالشافي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ) ، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (ت: ٧١٠هـ)- تحقيق: مروان الشعار، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط/ الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦ م .

مسند الإمام أحمد بن حنبل الناشر : مؤسسة قرطبة – القاهرة.

مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار ، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت: ٢٩٢هـ) ، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٩م

مطابقة الجواب للسؤال في النظم القرآني أ.د / عبد الله محمد سليمان هنداوي مطبعة الأمانة بشبرا ، ط/ الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م

معاني القرآن للأخفش [معتزلي]، المؤلف: أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (ت:٢١٥هـ)، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة ، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف ، وضعه / محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة : ١٤١١هـ ١٩٩١م

مفتاح العلوم ، المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ) دار التحرير للطبع والنشر ١٩٩١م

الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٥هـ

النشر في القراءات العشر المؤلف : شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى : ٨٣٣ هـ) المحقق: علي محمد الضباع (ت ١٣٨٠ هـ) الناشر: المطبعة التجارية الكبرى .

النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ،الناشر : المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي.

****

فهرس البحث

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	١
التمهيد : التعريف بالسؤال والجواب والنظم .	٤
المبحث الأول : أهمية السؤال في القرآن	٩
المبحث الثاني: الأمر بالسؤال	١٦
المبحث الثالث :محظورات السؤال	٢٩
المبحث الرابع :السؤال سبب للنزول	٤٨
المبحث الخامس : الاستفهام وأدواته.	٥٥
المبحث السادس : المعاني البلاغية للسؤال	٦٣
المبحث السابع : أحوال السؤال والجواب من حيث المطابقة وعدمها	٨٩
المبحث الثامن : الحذف في السؤال والجواب	١٠٨
المبحث التاسع : المشاكلة بين السؤال والجواب	١١٧
الخاتمة : (نتائج البحث)	١٢٢
المراجع.	١٢٤
فهرس البحث	١٣٣